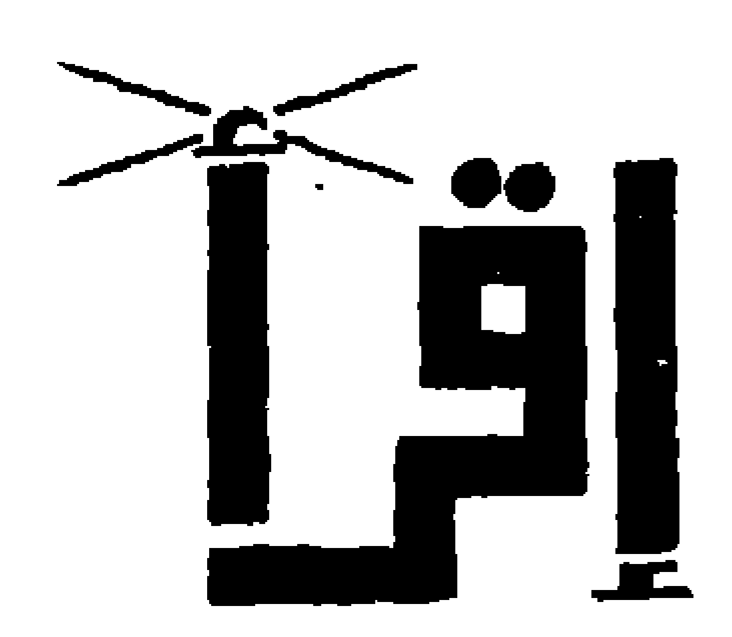


اقرأ
احمد بهجت
مذكرات زوج

لبنان ١٠٠ ق . ل	سوريا ١٠٠ ق . س	الأردن ١٠٠ ف . أ
العراق – الكويت ١٠٠ ف . ع	الخليج العربي ١٥٠ ف	السعودية ٢ ريال
عدن ٣,٥ شلن	السودان ١٢٠ مليا	ليبيا ١٥ قرشاً
تونس ٢٠٠ مليم	الجزائر ٢,٢٥ دينار	المغرب ٢,٢٥ درهم



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: عادل الغضبان





أحمد بهجت

مذكرات زوج

اقرأ ٣٢٠
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٢٠ – أغسطس سنة ١٩٦٩

إلى روح الشيخ عبد العزيز البشرى

إعجاباً بكتابته المصرية الساخرة

أحمد بهجت

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

«أن يكون الإنسان رصيناً له زوجة وأطفال وعمل
وأصدقاء وعادات موروثة وعادات مكتسبة، شيء
لا يمنع أن تكون له مذكرات يخبئها عن زوجته» .

مذكرات ٦ سبتمبر ١٩٦٤

عند ما يكتب الإنسان مذكراته فهذا يعني أن هناك شيئاً هاماً يريد من الآخرين معرفته ، وأنا لا أصدق هذا الإحساس بالأهمية ، لم يخامرني هذا الإحساس في البيت أو في العمل ، فأنا رجل متزوج في البيت ، ولي أكثر من رئيس في العمل ، وأنا لا أشكو شيئاً سوى البلادة والوحدة ، ولقد قررت اليوم أن أكتب مذكراتي . إن الكتابة عمل مسكر ورائع ، فعندما يكتب المرء يشعر بأنه ليس وحيداً في هذا العالم ، لكنني لا أكتب لهذا السبب ، إنني أكتب لأنني أحس أن كل إنسان في العالم قد أضحى جزيرة منفصلة ليس بينها وبين الآخرين اتصال ، هذه المذكرات ليست إلاّ محاولة يائسة للتلويح والصراخ أمام ما نتصور أنه سفينة مارة ، بينما هو في حقيقة الأمر سراب مائي. وسيبقى لنا من الحوار مع السراب صمت عظيم.

كيف يحصل الإنسان على الصمت في مثل هذا البيت ، إن الخادمة تغسل الصحون، أو بالأحرى تضرب الصحون وهي تغسلها ؛ وتحدث زوجتي ضجة هائلة تتعلق باكتشاف بقعة من التراب فوق مائدة تقع في يسار الصالة ، ويزعق أطفالي في حجرتهم كأن بينهم مباراة في الصياح ؛ ونموء القطط مواء عابثا يبدو أنها تقصد منه أن تتلاءم مع الجو النفسي للبيت . . .

هذا الموقف يدفعني إلى التأمل . . .

إن الإنسان يحتاج إلى تأمل حياته بين فترة وأخرى : ولقد مضت على سبع سنوات وأنا زوج مثالى . وفى هذه السنوات لا أنكر أننى سألت نفسى أسئلة خبيثة . . . مثلا : هل يستحق الزواج بسبب لحظة أن يبقى إلى جانبنا كائن من جنس آخر . . . ومن نفسية أخرى . . وأن يدوم بقاؤه إلى الأبد ، امرأة تعتبر أن من حقها أن تسألك فى أى وقت : فيم تفكر . . . ولماذا تسكت . . . امرأة تفتش فى أحلامك عن أخطاء تؤكد بها صدق نظرتها فيك . . .

كم يكون جميلا لو يستطيع المرء تحضير الزوجة فى المطبخ كما يحضر الحساء حتى يختلف طعمها من وقت لآخر ، هذه الأمنية العبقرية ليست من اكتشافى ، إنها مدينة بالوجود لأحد أبطال كاتب روسى لم يتهمه أحد بالتحيز ضد النساء . يعتقد هذا البطل نفسه أن هناك شيئاً مخيفاً ومصطنعاً فى النساء ، إن رغبتهن الطفيلية فى التعلق برجل تكفى وحدها لإدانتهن ، ولقد مرت بى تجارب تأكدت بعدها أن المرأة عند ما تنظر فى المرآة لا تفعل ذلك لتصلح زينتها ، إنما تفعل ذلك لتتأكد من وجودها ، وتحاول تأكيد هذا الوجود بشتى الطرق . لا أتحدث عن كل النساء ، لا أكره النساء وبالتالى لا أكره زوجتى . . . إننى أحب النوع الإنسانى كله بشكل عام ، ويبلغ افتتانى بالنساء حد الدهشة التى أحس بها عند ما أرى وجه فتاة لم أره من قبل . . . وأنا لا أحاول إخفاء هذه الدهشة عن زوجتى وأنا أسير معها فى الشارع . إننى رجل صادق . . . إننى أحس ساعتها أن شيئاً يشرق فى داخلى ، وأتأكد من وجود الحياة فى أماكن أخرى وأرواح أخرى . إن كلمة الروح تتردد فى الحديث بين زوجتى والخادمة. إن زوجتى تشير إلى أن تصرفات الخادمة ستزهق روحها ، والحقيقة أن زوجتى تبالغ قليلا مثل أردأ كتاب المسرح ، وهى أيضاً مثل كثير من كتابه الفاشلين قديرة على خلق أكبر كومة ممكنة من الحوار الذى لا يؤدى إلى شيء ؛ وعند ما تقرر زوجتى إنهاء الحوار تصرخ صرخة قصيرة تشبه

صرخات القبائل البدائية التى تهت بها أعداءها قبل الوثوب عليهم . . . ثم تأمر بتنظيف البوفيه ، لماذا تزوجت ؟ ! .

مذكرات ١٣ سبتمبر ١٩٦٤

زمان كانت تجلس أمامى وتستمع . . . وكانت تجيد الاستماع . وكنت أحكى لها مشاكل العمل أحياناً ، وأنا رجل لا أحب كثيراً أن أكشف كل حياتى فى العمل للآخرين ، فهناك هذه اللحظات التى تكون بين المرء ورئيسه ، والتى يقول فيها الرئيس أشياء كثيرة تتصل بالذكاء والغباء وحسن التصرف وسوء التصرف . . . هذه أشياء لا تقال للآخرين ، لكننى لم أكن أعتبرها من الآخرين ، وكنت حين أحدثها عن اضطهاد يقع فوق رأسى ، أراها تبتسم ابتسامة واسعة ، وتقشر لى قطعة من الفاكهة وتفهمنى أننى يجب أن أحتمل ، فهذه المتاعب نتيجة طبيعية للذكاء الذى ولدت به ، ويجب أن أدفع ضريبة العبقرية المبكرة ، فما دام الترقى فى هذه المصلحة بالأقدمية فلا شك فى أن رئيسى يضايقه كثيراً وجود أحد العباقرة فى نفس القسم الذى يرأسه ، كانت تضع فى فمى قطعة الفاكهة وتبتسم قائلة : إن الأذكياء يثيرون المتاعب والشغب دائماً ، ويجب أن تتحمل ؛ إن رئيسك يعتبر نبوغك أحد أخطائك . . . وكان تفسيرها يرضينى ويقنعنى . ويرفع كثيراً من روحى المعنوية . ولقد فوجئت بعد دخول المصيدة بأن الرقة لم تكن إلا تمثيلا للرقة ، وأن هذا الفهم العميق الشامل لم يكن إلا ادعاء يفتقر إلى الصحة . . . لا يتبادر إلى الذهن أن اكتشافى قد تم فجأة وسطع فى حياتى مثلما تسطع الشمس على السطوح المجاورة . . . أبداً . . . لقد حدث هذا بتدريج . أغلب الظن أننى لم ألحظه إلا بعد وقت متأخر تماماً . . . لاحظت بعد سنوات من الزواج أننى حينما أحدثها عن متاعب العمل تتبنى وجهة نظر رئيسى فى العمل ، وتدافع عن اتهامه لى بسوء التصرف ، وتحاول أن تدرس موقفى فى البيت فى ضوء موقفى فى العمل ،

وتحاول أن تكتشف فى مزيداً من العيوب . . . لماذا تحاول الزوجة أن تعرف كل مواطن الضعف فى زوجها . . . هل تفعل ذلك لأنها تعتبر الزواج معركة يجب فيها معرفة ثغرات العدو . لا أفهم لماذا يحدث ذلك ، ولماذا يتغير كثير من الزوجات بعد الزواج . . . أفهم طبعاً أن التغيير شيء يتفق مع طبيعة الحياة ، وأفهم أنه ما من شيء فى الدنيا إلا يتغير . حتى الأرض . تنقص جزءاً من أطرافها كل عام . لكن الذى لا أفهمه أن تتغير مشاعر الإنسان من الرقة إلى الجمود إلى القسوة . أحياناً يخيل إلى أن زوجتى مثل زوجة لويس السادس عشر ، أما الصلة بينها وبين زوجة لويس السادس عشر فهى تلك القسوة التى تكمن فى الضعف . . . وعدم الفهم الذى هو صفة مشتركة بين النساء . . . معظم النساء . . . إن مارى أنطوانيت حينما أطلت على مظاهرة الجائعات من مخبئها فى القصر وسألت عما يردنه . . . وقيل لها : إنهن يطالبن بالخبز . . . واقترحت هى أن يأكلن « الجاتوه » . . . لم تكن قاسية ، كانت غبية . . . ببساطة لم تكن تقدر الوضع على حقيقته . . . إن تقدير الأمور صفة من صفات الرجولة والمسئولية . . . ما هو السر فى أننى لا يمكن أن أتعرض لخطأ يمكن إثباته على فى العمل . . . ببساطة لأن هناك مائة مسئول فى المصلحة التى أعمل بها ، ولكى أوقع أنا ورقة ما فى العمل . . . يجب أن أقرأ توقيعات ثلاثة من رؤسائى المباشرين على الورقة . . . أنا إذن لا أتخذ قرارات فى عملى . . . وهذا سر فوضى العمل واضطرابه ، وتحاول زوجتى إيهامى بأن هذا هو أفضل شيء يصنعونه معى فى العمل ، هذا يضمن سير العمل وهدوءه كما تقول ، ومن الأولى بى فى البيت أن أتصرف مثلما أفعل فى العمل . . . أترك كل شيء لها . . . تتخذ هى القرارات وأتحمل أنا المسئولية . . . وأنا أرفض هذا فى البيت كما أرفضه فى العمل ، وأحياناً أختلى بنفسى مثلما أفعل الآن ، وأفكر فى رئيسى المباشر وزوجتى . . . فى السلطتين اللتين تسير حياتى بينهما كقطار يسير فوق قضيبين من الحديد . . . إن رئيسى

فى العمل وزوجتى عند ما يحاولان قتل ذبابة يفكران فى ضربها بقنبلة . . أليس هذا مخيفاً . . . إن أبسط الأشياء تحتاج منهما إلى ضجيج هائل يشبه دوى القنبلة . . . وهكذا ترون تعاستى . . . أسمع صوتها يقترب . . .

مذكرات ٢٠ سبتمبر ١٩٦٤

علمنى الزواج أن أختزن كثيراً من التعليقات فى جوفى . لا أبوح بها لمعرفتى أن كلمة ساذجة قد تجر إلى متاعب كثيرة ، وقديماً كانت الحرب تنشأ بسبب كلمة طائشة. وفى هذه اللحظة تتحدث زوجتى حديثاً أود أن أفقد خمس سنوات من عمرى لأعلق عليه ، لكننى لا أفعل ذلك : إننى أجلس ساكناً وألتف بكل صمتى وأتدثر بحكمتى وأكبت رغباتى رغم معرفتى أن الكبت ضار بالصحة .

ها هى زوجتى تلتفت إلى وتسألنى :

– بتفكر فى إيه ؟

لن أجيب ، فلعل هذا السؤال فخ منصوب ، إننى أكتفى بأن أبتسم ابتسامة أحشوها بكل طاقتى من البلاهة .

ما أشد ظمئى لرؤية محمود ، هذا أحد أصدقاء العصر الذهبى قبل الزواج ، والساعة الآن التاسعة مساء ، وهناك ضيوف كثيرون قرروا أن يشرفونا بزيارتهم الليلة . إننى أفكر جديا فى ارتداء ملابسى والخروج ، أكاد أذوب شوقاً لذلك ، وتفكيرى جدى إلى درجة أنه يتحول أمام عينى إلى حلم لن يرى النور أبداً . . . إن زوجتى سيدة جامدة ورصينة وصارمة ولن تفهم أبداً كيف أترك ضيوفنا لأخرج . . . ولو قلت لها إننى أحس بالحنين لرؤية واحد من أولئك الذين شهدوا حياتى الماضية ، واحد من أولئك الذين شاركوا فى حياتى القديمة . . . لا لشىء إلا لنبكى معاً . . .

لو قلت لها ذلك فسوف تتصور أن سوء طالعها قد اكتمل ، وأن الحياة لم تكتف بكل المتاعب التى رزقتها بها ، فها هى تكمل جميلها

وترزقها بزوج مجنون ، ولو أنني افتعلت عذراً وخرجت بعد انصراف الضيوف . . . فسيكون معنى ذلك أن الوقت متأخر . والوقت المتأخر فى نظر الزوجة لا يعنى غير شيء واحد . . . امرأة أخرى . . .

لن أقول إن هذا الاتهام لفرط ترديده قد أصبح أمنية عزيزة . . .

ها هو الطعام قد أعد . . . وامتلأت المائدة ، ونهض الضيوف للعشاء . إن زوجتى تنظر إلىّ بعينها نظرة معناها أن على أن أقوم بنوع من النشاط يقصد به حث الضيوف على التهام أكبر كمية ممكنة من الطعام ، لكنى أتجاهل نظرتها وتزداد ابتسامتى اتساعاً وبلاهة . ليس الضيوف فى حاجة لمن يستحثهم على الأكل ، لقد جاءوا خصيصاً للعشاء وسينصرفون بعده مباشرة . وسيحتج كل واحد منهم بعذر لينصرف ، ولن يبقى غيرى وغير زوجتى . . . كم تغيرت زوجتى . . . كم تغيرت . . . إنها تزداد امتلاء وسمنة ، وفى المرة الوحيدة التى ذكرت لها فيها أنها تزداد امتلاء وسمنة ردت بأنها تعيش وسط هموم متصلة أنا أحد أسبابها . كم تغيرت زوجتى عن أيام الخطبة . لقد كانت نحيلة ومضحكة ، وكانت فكرة وجود رجل يحبها ويجلس قريباً منها تملأ أوصالها بسرور عظيم ، وكان سرورها يعدينى ، وكنت مسروراً أنا الآخر ، لكننى لا أستطيع أن أقول إننى كنت أحبها هذا الحب الذى نقرأ عنه فى القصص ، لقد تقدمت لزواجها ، وحملت زوجتى نفسها على الاعتقاد (ولا أدرى لماذا) بأننى ما دمت أريد زواجها فلا ريب أننى أعشقها وأهيم بها ، وأخذت على عاتقها كواجب إنسانى أن تنظر إلى بعينين طافحتين بالحب ، وأن تخفف بنكاتها عن قلبى المكلوم ، واستمعت إليها بأدب وتحفظ حتى اكتشفت ذات يوم أن رجلا غريباً يرتدى عمامة ويأمرنى أن أقول وراءه : إننى تبت إلى الله ورجعت إليه وعزمت على ذلك ، كان ثمة مأذون يزوجنى بها ولم أكن قد قررت التوبة يومها ، لكننى تزوجت وأنا أحس بضعف شديد وحيرة غامرة .

لقد جلس الضيوف أمام المائدة وبدأت سيمفونية المضغ والبلع .

مذكرات ٢٧ سبتمبر ١٩٦٤

ما الذى أفقدنى وعيي ودفعنى إلى الزواج ؟
يحتاج هذا السؤال البسيط إلى محاولة جادة لمعرفة الإجابة . أعتقد أنه يحتاج لهذه المحاولة حقاً . لقد كنت سعيداً بنفسى قبل الزواج . لم أكن سعيداً بدرجة كبيرة إذا تحرينا الدقة ، فنفسى فى حقيقة الأمر شيء محير جدا . أعتقد أن نفوس الآخرين كذلك . عند ما نكون وحدنا نهفو إلى امرأة ، وعند ما يغلق علينا الباب مع امرأة ونعرف أن الباب قد أغلق إلى الأبد نبدأ فى نبش الحائط بأظافرنا والبحث عن سكين لنرسم به خريطة تقول للأصدقاء أين نحن حتى يهبوا للنجدة . .
خرجت زوجتى منذ ساعة . صحبت الأولاد والخادمة وذهبت إلى أمها لتزورها . أليس مدهشاً هذا الحب بين البنت وأمها : . يخيل إلى أحياناً أن الحب بين زوجتى وأمها ليس حباً بالمعنى المألوف . . . إنما هو نوع من اطمئنان الكتلة الكبيرة على الكتلة الصغيرة التى هى امتداد لها ، والتأكد من أن هذه الكتلة الصغيرة تأخذ طريقها نحو النمو المنتظم . . . إن الأم حين تزورنا وتقبل ابنتها تمسكها بيديها كأنما تزنها . . فإذا كانت زوجتى شاحبة لأنها خرجت لتوها من مشاحنة حامية مع الخادمة أو معى ، ألقت الأم محاضرة قصيرة عن السعادة الزوجية وعلاقتها بنقص الوزن والشحوب . . . وخلصت إلى الإيهام بأن ابنتها قد تكون تعيسة ، ثم راحت تذكر بشكل عرضى عدد الرجال الذين تقدموا للزواج من ابنتها وكيف كانوا أفضل جميعاً منى ثم فضلتنى البنت رغم ذلك عليهم ، وتتنهد الكتلة الكبيرة وتلقى بالمسئولية كلها على الحب . . . ويبدو كلامها طبيعياً وبريئاً إلى درجة تجعل من العسير على مقاطعتها أو تصحيح معلوماتها مثلا . . . فهى تدردش قليلا وتشرب زجاجتين من الكوكاكولا وفنجاناً من القهوة ثم تنصرف ، وبعد أن

تنصرف أكتشف أنها قالت كل ذلك . . . وأسأل نفسي : لماذا جاءت فلا أجد سبباً غير أنها جاءت تزن ابنتها . . . وتطمئن عليها ، ما الذى تتصوره هذه السيدة . . . هل تتصور أننى سآكل ابنتها يوماً . . . هذا هو نوع الحب بينهما إذن . . . وأحياناً يخيل إلى أن خطأ ما قد حدث حين ولدت زوجتى ولم ينقطع الحبل السرى الذى يصلها بالأم ...ولهذا السبب ما زالت ترتبط بها ارتباطاً كاملا ...واليوم قررت زيارتها ...واعتذرت عن مصاحبتها متعللا بأن ورائى عملا أفضل أن أؤديه فى البيت .ولم يكد شبح زوجتى يختفى فى نهاية الشارع حتى أسرعت إلى دولابى وفتحته وأنا أمنى نفسى بجلسة طيبة مع الأصدقاء فى المقهى ... وبحثت فوق الشماعة عن قميص فلم أجد . . . أين القميص الذى خلعته بعد عودتى من العمل . . . ؟ وبدأت أبحث عنه ، واكتشفت خلال بحثى اليائس أن القميص مبتل تماماً ويرقد مع قمصان كثيرة غيره ، وعددت القمصان ، اكتشفت أن واحداً منها غير موجود . . . وتعلقت بهذا الأمل . . . وعاودت البحث ، واكتشفت خلال هذا البحث أننى أعيش فى مغارة تمتلىء بمئات الأشياء التى لا أفهم سبباً لوجودها ، عثرت على ألف شىء لكنى لم أعثر على القميص الغائب .

لعله عند المكوجى ، وخرجت إلى الشرفة لأنادى البواب ، نحن نسكن فى الدور الخامس والرجل سمعه لا يمتد لأكثر من ثلاثة أمتار ، وينبغى أن أملك صوتاً هائلا ليسمعنى . . . وزعقت عليه آلاف المرات لكن الرجل ظل مسمراً فوق دكته الخشبية التى تغير مكانها طبقاً لحركة الشمس . . . فتوجد دائماً فى البقعة الظليلة فى الصيف ، ولا تحتل غير الأجزاء المشمسة فى الشتاء . . . وحين رفع الرجل رأسه إلى أخيراً وأفهمته ما أريد ، قال إنه لا يعرف المكوجى الذى نستخدمه الآن ، أفهمنى أن الست تشاجرت مع المكوجى الأخير وغيرته ، وأنه قد أعلن عدم تحمله مسئولية هذا المكوجى الجديد الذى لا يعرفه هو . . . من الذى

يعرف مكانه إذن ؟ . . . الخادمة . . . أين الخادمة ؟ . . . ذهبت مع الست . . . وهكذا عدت من الشرفة وفى رأسى نفس الدوار الذى عاد به كريستوفر كولمبس من رحلته لأمريكا ، مع فارق بسيط واحد ، أنه نجح فى اكتشاف أمريكا ، أما أنا ففشلت فى اكتشاف مكان القميص الغائب . . . ويئست أخيراً فوضعت رأسى بين كفى واستسلمت للسجن . . وأضاء فى نفسى معنى أن يكون الإنسان حراً .

مذكرات ٤ أكتوبر ١٩٦٤

تؤمن زوجتى بالحب ، وتعترف بوجوده ، وتعتقد أن الجنسين كانا فى الزمن القديم جنساً واحداً ، ولكن الآلهة بسبب « خبث البشر » ، قطعت الإنسان نصفين ، تماماً « كاللفت » الذى يشق نصفين للتخليل ، وكل منا حين انفصل ، لم يكن إلا نصف إنسان أو نصف لفتة ، هذا النصف يتطلع دائماً إلى النصف الآخر ، هذا التروع نحو النصف الآخر هو الحب ، وهكذا يتحول الساحر الذى يصنع المعجزات بين يدى زوجتى إلى قطعتين من اللفت تتحرك كل منهما فى اتجاه الأخرى لإنجاب مزيد من اللفت . أليست هذه صورة منفرة للحب .

أعلم أن زوجتى إنصافاً للحقيقة والتاريخ ليست مسئولة عن هذا التعريف ، فقد ورد التعريف على لسان ارستوفانز فى محاورته المادية لأفلاطون ، وأغلب ظنى أن زوجتى قرأته أيام الجامعة أو سمعته بعد ذلك ؛ فعلق بذهنها واستهواها التعريف ، على أى حال لا شك فى أن انتزاع الكلام من موضعه فى المحاورة وعرضه بهذا الشكل يسىء كثيراً إلى اللفت وإلى الحب. منذ سنوات كنت أتصور أننى أفهم الحب بعقل الفيلسوف وأحسه بوعى العاشق ، وكنت أتصور اسمى إلى جوار اسماء العاشقين الذين سجل التاريخ أسماءهم ، ثم مر الوقت وبدأت أفكارى عن الحب تضطرب وتتخلخل ، وارتفع من أرض الواقع سحاب ترابى ملأ دنيا الحب ، ولم يعد

الحب فى نظرى هو هذا القصر الخشبى الأنيق الذى يمتد البحر عند قدميه ، ولم يعد هو هذا الكوخ المسحور الذى تبنيه أحلامنا وتقسم على وجوده فوق سحب لا مثيل لرقتها . . . لم تعد صورة الحب كذلك فى نظرى . . . اهتزت الصورة وسقط كثير من الريش على الأرض وكبر الحيوان . وعاد الوقت يمر ، وطرأ على نظرتى للحب تغيير آخر . راودنى الشك فى وجوده أصلا ، وأقنعت نفسى أن الحب كلمة من اختراع شعراء الأقاليم ، وأراحنى هذا التفسير فعشت زمناً فى تعاسة الحجارة التى تصنع منها أرصفة الموانئ . . . ثم نبهتنى آلاف الزيجات التى تقترف كل يوم بدعوى الحب . . . نبهتنى آلاف القبلات التى يرن صوتها داخل الغلاف الهوائى المحيط بالأرض . . . نبهتنى هذه الأشياء إلى وجود الحب . وعجبت أن يبدو الحب قبل الزواج فى حرارة الشهب فإذا دخل منطقة الزواج تثلج والتف بشرائط الموميات المقدسة ودخل التاريخ . . . لكن عجبى لم يلبث أن ذاب عند ما دققت النظر فى فهمنا للحب قبل الزواج وبعده . الحب قبل الزواج محام مهمته الدفاع . . . محام يعرف أن موكله آثم لكنه يختلق له المعاذير ويفتش عن الظروف المخففة ويضنى نفسه لاكتشاف نقط الضعف فى القانون حتى يخترقها ويظفر بالبراءة . . أما الزواج فينظر إلى الموضوع نظرة قاض لا يمكن شراء ضميره ، قاض أمامه نص فى قانون العقوبات وأمامه واقعة مادية ينطبق عليها النص ولا مفر من الحكم . قاض لا تؤثر فيه بلاغة الدفاع ولا محاولته المكشوفة لتغطية الجريمة . . . ولأن الحب محام نراه يفهم الخطأ ويغفره ، ولأن الزواج قاض نراه يحكم طوال الوقت . لا يكف عن الأسئلة ولا يؤجل الحكم . وزوجتى لا تكف عن إصدار الأحكام على ، ولا تكف عن استجوابى ، وأحياناً تعمد إلى التعذيب رغم أن القانون يمنع ذلك . ولو اختلف الوضع وعكسنا النظريتين وأصبح الحب هو القاضى وأصبح الزواج هو المحامى لقلت الأخطاء وعرف الهدوء طريقه للقلب .

إن الحب فى نهاية الأمر اختيار تتوقف عليه مئات الأشياء : ويجب أن نختار بنفسية القاضى : فإذا وقع هذا الاختيار أو وقعت الفأس فى الرأس وارتبطنا بإنسان آخر فلنعش معه بنفسية المحامى الذى يفهم الأخطاء ويغفرها .

مذكرات ١١ أكتوبر ١٩٦٤

ونحن نجلس إلى المائدة فتحت زوجتى فمها وأصدرت تصريحاً تؤكد فيه أننى لا أفهم فى الحب ، ولا أعرف معنى أن يكون الإنسان عاشقاً : ولذت بالصمت العميق بعد صدور هذا التصريح . وانسدت نفسى عن الأكل ، وبدأت أفكر جدياً فى الثورة ، فكرت أن أقلب عليها المائدة وأصيح قائلا : إن هذه عيشة لا تطاق ، ثم أقنعتنى نظرة سريعة إلى المائدة بأننى أحتاج إلى ثلاثة رجال لتحريكها من مكانها ، فكرت أن أمد يدى إلى الأطباق وأبدأ تكسيرها صائحاً : إننى لم أعد أحتمل إهانات . ثم خشيت أن ينطوى هذا التصرف على نوع من أنواع البطر الذى يزيل النعمة ، فقد كانت الأطباق كلها تمتلىء بالطعام . فكرت أن أقول شيئاً يجرح زوجتى ويؤلمها ويجعلها تبكى ، لكننى لم أعثر على شىء يساوى ما قالته منذ لحظات . لقد اتهمتنى بأننى زلطة ، أو شجرة . . أو قطعة من الحجر ، لقد اتهمتنى بأننى لست إنساناً ، فأى إنسان لا بد أن يفهم فى الحب ، والذين لا يفهمون فى الحب هم قطع الحجارة والزلط وجذوع الأشجار ، حتى أغصان الأشجار تفهم فى الحب لأنها تثمر، ونهضت من المائدة بعد قليل وأنا أحس بالغضب والحيرة ، ولم تلبث مشاعر الحيرة أن تقدمت واستولت تماماً على المكان المخصص لمشاعر الغضب ، لا أفهم فى الحب...ونظرت داخل حياتى نظرة طويلة...وتتابعت أمام عين الذاكرة مواكب الفتيات اللاتى عرفتهن . . . وتدفقت على الروح هذه الذكريات القديمة التى تحمل عبير الطفولة ، وشاهدت نفسى أقف

أمام شباك ابنة الجيران أيام كنا نسكن فى شبرا . . . فتحة الشباك الصغيرة كانت أول قصة حب فى حياتى : كانت تنتمي لدين لا أنتمى إليه ، وكانت تكبرنى بعشرة أعوام ، ولا أعرف حتى الآن حقيقة مشاعرها نحوى ، لكننى أحببتها حباً لم يمنحه رجل قط لامرأة ، وكان عمرى أيامها ثلاثة عشر عاما ، وكنت أحس أننى رجل ، أليست الرجولة هى الإحساس بالمسئولية ؟ لا ريب أننى كنت رجلا أيامها ، فقد اعتبرت نفسى مسئولا عنها ، وكنت أوصلها كل يوم إلى مدرسة الراهبات ، والويل لمن يتجرأ على مغازلتها أثناء سيرها فى الطريق . . . كنت أخبطه فى كتفه بطريقة لا تدع له مجالا للالتفات لشيء سوى أن يعيد ما تبعثر من نفسه . وتقدم بى الحب ، وتعودت أن أهبط المشتل القريب لأسرق منه وردتين أو وردة لأعطيها لها وهى عائدة من المدرسة ، كنت أعجب لهذا الشيء الذى يجعل قلبي يخفق بملايين الأحلام دفعة واحدة وأنا أقدم لها الوردة ، وكانت تعرف أننى صديق شقيقها ، وكانت ترانى فى بيته معه أحياناً .

وكانت تسألني : إيه ده . . .

وكنت أتلعثم ، وأصف لها المشتل القريب وأحدثها عن زهوره الجميلة وأحكى لها كل شيء عن المكان الذى كانت وردتها تعيش فيه . . .

وكانت تتناول منى الوردة وتقربها من أنفها الصغير وتحنى رأسها وتبتسم وتسير . . . لا تقول كلمة . . . لا تقول حتى أشكرك . . . وأتوقف حتى تسبقنى بمسافة كافية ، ثم أبدأ حراستى لها مثل كلب وفى . . .

لم تكن أحلامى تجرؤ على الدنو من جسدها ، لم تكن بالنسبة لى غير كائن مجرد هو الحب نفسه . . .

وانكسر الحب فجأة . . .

أذكر اليوم المشئوم الذى وقفت فيه السيارة الصغيرة الكالحة أمام بيتها وهبط منها شاب طويل مع امرأة عجوز واختفيا فى باب العمارة . . . وذاع النبأ فى المنطقة بعدها بيومين . . . قاله شقيقها لى ، ووقفت بلا حول ولا قوة

أسمع نبأ زواجها . . .

وخرجت البنت من حياتى ، دخلت ذات يوم سيارة زرقاء كبيرة وهى ترتدى طرحتها البيضاء ومضت . . .

كانت السيارة تثير كثيراً من التراب وهى تمضى . . . وكان التراب والسيارة وطرحتها البيضاء والورود والمشتل ومدرسة الراهبات وسانت تريز وشارع شبرا تبدأ الغرق وسط موجة من الدمع أعتقد أنه كان يفيض من مكان لست أعرفه داخل نفسى . . .

بتفكر فى إيه . . . ؟ هذا صوت زوجتى ، ما أقسى النقلة المفاجئة .

مذكرات ١٨ أكتوبر ١٩٦٤

تمر بالإنسان لحظات من السلام النفسى التى يحس فيها بالصفاء العميق والشفافية ، حتى ليجهل ساعتها من يكون وإلى أى كوكب ينتمى .. لحظات نادرة تمر بالمرء قليلا لكنها عند ما تجىء تدفع الإنسان مباشرة فى قلب الوجود، فيتصل بالكون، ويتصل بخالق الكون، ويتسمع لحفيف أجنحة الملائكة ويروح يفكر فى قلبه . . . هذا القلب البشرى الذى يملك القدرة على دفع الدم فى الأنسجة كما يملك القدرة على دفع الدمع فى العيون ، كما يملك القدرة على الامتلاء بملايين الأحلام الجميلة ، ويظل الإنسان يرق ويرقب نفسه ، ويتأمل فيها العظمة الخالقة ، ثم يعتصر المعدة جوع يجعلها تتحرك ، ويفكر المرء فى الطعام ، فى المعدة ، فى هذا المعمل الكيميائى المعقد الذى يمتلئ بأحماض تهضم كل شىء باستثناء المعدة نفسها ، ويعمق الاتصال ويشف الإنسان ويفهم نعمة خلقه إنساناً ، وكان يمكن أن يخلق قطعة من الطوب أو فرعاً فى شجرة ، ولو أنه خلق هكذا لما وجد فى نفسه الجرأة على أن يسأل خالقه لماذا لم يخلقه إنساناً بدلا من خلقه جماداً تعيساً أو نباتاً يأكله الآخرون . . . ويغمر الإنسان شعور بأنه يريد أن يجمع كل صلوات الشكر فى كلمة يقدمها إلى الله . . .

وقبل أن يهم الإنسان بذلك يتغير المنظر .

تقتحم الزوجة الحجرة فجأة كزوبعة هائلة . . . وتستدير الزوبعة وتتلفت . . . لعلها تبحث عن شيء . . . إنها تدور بعينيها فى أرجاء الغرفة . . ها هى تنحنى أخيراً على شيء فى الأرض . . . الحمد لله . . . لقد وجدت ما كانت تبحث عنه . . . وستتركنى فى حالى وتخرج . . . ولكنها تلاحظ وجودى . . . إننى جزء من المنظر الطبيعى الذى يقع أمامها مباشرة . . . وتلاحظ مع وجودى هذا الهدوء الذى أستمتع به . . . وكنوع من استخسار الهدوء فى ينفجر سؤالها فجأة . . . ولا أتبين مفردات السؤال . . .

* نعم . . .

ـــ الله ينعم عليك . . .

آه . . . ها هى تعود إلى المناورة . . . لماذا لا تلقى على السؤال مرة أخرى فأجيبها فتستريح ، وأؤكد لها أننى لم أسمع . . . وتقول وهى ترقبنى بنظرات الشك :

* غريبة إنك ما سمعتش . . . بسألك سرحان فى إيه ؟

ـــ أبداً . . . ولا حاجة . . .

وترمقنى بنظراتها الصارمة ، وتسأل :

* فيه بنى آدم يقعد ساكت من غير ما يفكر فى حاجه ؟

وأرد عليها وأنا أتذكر اتهامها لى بأننى لا أعرف الحب : البنى آدم اللى ما يعرفش يحب ده مش بنى آدم ، ويبقى ممكن يقعد ساكت من غير ما يفكر فى حاجة .

وتشيح بيدها إشارة إلى سأمها من استمرار المناقشة حول الحب . . . وتغادر الغرفة . وتملؤنى حركة يدها إحساساً بأن كل عاطفتى تلقى من النافذة التى تطل على بحيرة دائمة صنعتها المجارى منتهزة فرصة الفيضان الماضى . أحس أننى زائد فى المكان . . . أليس غريباً أن يكون لزوجتى رأيها المضحك

فى الحب ثم تتهمنى بالتجرد من العاطفة. . . هل صحيح أننى لا أعرف كيف أحب؟ إذا كان حديث زوجتى غير صحيح فلماذا أشعر بكل هذا الضيق . . ؟ يبدو أنها أصابت بحديثها جزءاً من الحقيقة . . . أعرف أنها أصابت هذا الجزء . . . أحياناً أسأل نفسى : أين تعلمت الحب . . ؟ قد يبدو السؤال مضحكاً وغريباً ؛ لكنه جدير بأن يناقش . . . أين يتعلم الإنسان الحب ؟ ! .

فى المدرسة؟ . . . قطعاً لا . . . إن مدارسنا تنظر إلى الحب نظرتها إلى الخطيئة . . . ولا تعلمنا المدارس أى شىء على وجه الخصوص . إنها تفتح أدمغتنا وتسكب فيها عدداً من المعلومات السخيفة التى لا تلبث أن تنزلق من رؤوسنا بعد الامتحان مثلما ينزلق الزئبق على الزجاج . . .

إننى أذكر المدرسين الذين درسوا لى . . . كلهم بلا استثناء كانوا مرهقين لأمر لا أعرفه ، كلهم بلا استثناء كانت ملامحهم تعكس تعباً نفسياً هائلا . . .

وكانوا جميعاً غير قادرين على منح الحب أو استقباله . . . وكان احترامنا لهم يتناسب تناسباً طردياً مع قسوتهم . . . وكانوا جميعاً قساة . . . باستثناء واحد منهم أو اثنين . . . وكان المدرسون يدخلون الفصل ويفتحون أفواههم ويكومون أمامنا المعلومات المقررة ويمضون . . . لم يعلمونا كيف نحب . . . ولا كانوا هم أيضاً يحبون . . .

مذكرات ٢٥ أكتوبر ١٩٦٤

المدرسة لا تعلمنا الحب لأنه ليس مادة قررتها وزارة التربية ، والبيت لا يعلمنا الحب لأنه يفتقده . . . وفاقد الشىء لا يعطيه ، ولا يبقى فى الميدان بعد ذلك غير الصورة التى تقدمها السينما والإذاعة والقصص للحب. . . وهى صورة يستحيل بعدها أن نعرف غير حب مريض ليست له القدرة على الوجود الصحيح داخل أسرة .

وإنى لأذكر أيام كنت تلميذاً صغيراً أغنية تقول (على غصون البان عصفورتان تتناجيان بأعذب الألحان)... وكانت هذه هى الصورة المبسطة الأولى للحب ... وكل كلمات الأغانى أيامها تسلك إلى الحب طريقين: إما طريق العصافير والبلابل وهو طريق يمتلئ بأخيلته الرومانسية وولائها الشديد للطبيعة ، أو تسلك إليه طريق العذاب . . . فإذا هى تتحدث عن الحب فلا ترى فيه غير جانب الأسى والضنى والألم .

كانت الأغنية تقول أيامها : « ثريا . . محلى حياة الأسيه . . . » . وكانت ثريا هذه فتاة لا ترسم الأغنية صورة لملامحها النفسية بقدر ما ترينا كمية الصداع المستمر الذى تسببه لحبيبها . . . حتى ليبلغ الألم حداً يجعله يبكى ، ويبلغ الخوف حداً يجعله يستحلى مذاق البكاء ، ومن الغريب أننى أحببت بتأثير الأغنية فتاة تسمى ثريا ، وكنت تلميذاً بالابتدائى ، وكانت توصلنا سيارة صغيرة يقودها الحاج رضوان . . . وكانت البنات يجلسن بجوار عم رضوان ويجلس الأولاد فى الخلف . . . وأوقعتنى هذه الرقة الآسرة التى تشع من عينيها . . . وقررت أن أحبها بطريقة الأغانى . . . وهكذا رحت أكتب إليها خطابات بالحبر الأحمر الذى كان أبى يستخدمه . . . مصدراً كل خطاب بهذه العبارة « أكتب إليك بدمى» . . . وكنت أعطى هذه الخطابات لأحد أصدقائى الصغار ، وكان يسكن فى شقة تواجه شقتها ويقسم لى أنه يقوم بتوصيل هذه الخطابات إليها . . . بغير أن يقرأها . . . ودفعتنى سخافة الدراسة إلى أن أكتب إليها أكثر من مائة خطاب طوال السنة . . . وحين جاءت نهاية العام تصورت أن القلعة الصغيرة لا بد أن تكون مشتعلة بنيران الحب . . . ثم فوجئت بأبى يستدعينى يوماً إلى حجرته ولم يكن يستدعينى إلى حجرته إلا فى الأمور الخطيرة ، ودخلت عليه لأجد كل خطاباتى التى أرسلتها وهى ترقد أمامه . . . قال أبى يومها وهو يضع رأسه بين يديه ويمثل دور رجل أصابته كارثة فى ابنه الوحيد :

ــ بتقول إنك بتذاكر طول السنة وأنت قاعد تحب . . .

قالها أبى وأبعد يديه عن رأسه . . . وعاد يردد فى ذهول :

ـ يا خبر اسود . . . قاعد تحب طول السنة وتضحك على وسايب المذاكرة . . . أعمل فيك إيه . . . قل لى أعمل فيك إيه . ؟

وحاولت أن أبحث معه عن عقوبة يوقعها على حتى يهدأ غضبه فلم أجد شيئاً . . . وفوجئت بشىء ثقيل يسقط على وجهى وأغلب الظن أن هذا الشىء الثقيل كان يده . . . ومنعنى الذهول والخوف من البكاء . . . وتحدث أبى وصوته يعلو تدريجاً عن دكان العجلاتى الذى يقع عند رأس الشارع . . . وارتفع صوت أبى أكثر وهو يقسم أننى إذا رسبت فسوف يرمى طوبتى تماماً ويأخذنى من يدى إلى العجلاتى ويتركنى عنده رهينة لأتعلم حرفته ، ويتحدد مستقبلى إلى الأبد . . . وكان التهديد شيئاً مخيفاً ، فلم تكن الأفكار الاشتراكية منتشرة كهذه الأيام . . . وأقنعتنى التجربة ألا أعود إلى الحب بطريق الأغانى مرة ثانية . . . وكانت الأغانى تضرب فى تيه الذهول وتتحدث عن حلاوة عيشة الفلاح وسعادة العامل ، وتصور فى نفس الوقت كسل المحبين وعجزهم عن اللحاق بالحبيبة فتقول الأغنية : هاتوا لى حبيبى . . . وحين دخلت الحرب العالمية الثانية سقطت الأغنية من سماء الرومانسية بكل سحابها الحالم إلى أرض الجنس الطينية الغليظة. . . وراحت الأغانى تخاطب جانباً واحداً من جوانب الإنسان . . . هذا الجانب الذى يقف فيه الإنسان وزميله الحيوان على قدم المساواة .

وتسللت كلمات من اللغة الإنجليزية إلى الأغانى ، مجاراة لشعور جنود الحلفاء الذين كانوا ضمن المستمعين . . . وهبط المعنى وزاد غباء اللحن وانحطت الأغنية . وحورب سيد درويش بشكل منظم وهادئ ، وانحسرت آخر بقايا الموجة التى خلفها سيد درويش بشكل منظم ، وعادت راية التفاهة ترفرف على أشلاء الفن الحقيقى والأصالة . . . أى حب تعلمه هذه الأغانى . . . ولم تكن السينما أحسن حظاً من الأغانى . . . وكانت الأفلام تدور غالباً حول هذه الفكرة . . . ابن ذوات يحب فتاة

فقيرة . . . يحبها رغم أنف والده . . . يثور الوالد . . . يبرز فى الجو غريم سيئ يجتذب الفتاة . . . الفتاة تنساق . . . البطل الطيب يسقط فى كأس من الويسكى فى مكان فيه راقصة . . . الراقصة تنهض واقفة وتهز جسدها . . يستيقظ الطبل ويبدأ الرقص . النهاية سعيدة . البطل يتزوج من البطلة . . . فى الزفاف راقصة . . . الطبل يبدأ والرقص يشتغل . . . ولم تكن القصص أيضاً تشذ عن القاعدة . . . معظم القصص كانت تصور القاهرة كحجرة كبيرة تضيئها لمبة حمراء وتزمجر فيها السيارات المحمومة إلى جوار المصابيح العارية . . .

وكان أثمن شىء يساوى أى شىء . . . وكمن الروح المصرى هذا الكمون الذى ينبئ باقتراب عاصفة تنزع الجلد من اللحم وتنزع اللحم من العظم وتغسل الجلد وتغسل اللحم وتغسل العظم وتطهر .

أين كان يمكن لزوج مصرى مثلى أن يتعلم الحب . . . ما أغرب الذكريات . . . عند ما أنظر فى طفولتى أستطيع أن أحس بمدى القسوة التى تكمن فى الحرمان من الحب . . . ولم تكن بيوتنا وهى تضم آباءنا المرهقين الغاضبين دائماً . . . وأمهاتنا المتعبات الشاكيات دائماً . . . لم تكن بيوتنا تصلح مكاناً لتعلم الحب . . .

مذكرات ١ نوفمبر ١٩٦٤

عندما يقع القتال بين الزوج وامرأته تستخدم المرأة قوتها اليومية وتكسب المعركة بأقل الأسلحة . . أحياناً أنظر لزوجتى وأرقبها خلال قتالها معى . . إنها لا تنتصر بالقتال أو الشجاعة ، بل بالمثابرة والنشاط ، وقتال الرجل صريح وواضح ، لكنه أقل ثباتاً ، والرجل أكثر استعداداً من المرأة للصلح والتسليم فى سبيل الحصول على السلام ، والمرأة أكثر قدرة على الثرثرة ، وتنتصر المرأة بالتكرار والإلحاح ، تماماً مثل إعلان سخيف يتكرر يوماً بعد يوم حتى يحتل مساحة خاصة فى ذهننا ويصبح الإقبال عليه



شيئاً يدخل ضمن تكويننا النفسى . وبرغم ضعف المرأة الجسدى نراها تحكم الرجل فى نهاية الأمر ، وكل نجاح عظيم يحققه الرجل تستفيد منه زوجته أولا ، وتسخره ليحقق نجاحاً غيره دون أن يدرى ، حتى نابليون لم يستطع حكم زوجته مع أنه تمكن من حكم قارة ، أليس هو القائل : « لم أكن فى نظر أسرتى إلا رجلا ضعيفاً ، وكانت زوجتى تعرف عنى ذلك . . . وتتغلب على غضبى بالعناد والمثابرة وتسوقنى إلى تحقيق ما تريده لمجرد سأمى من استمرار القتال » .

لست أعظم من نابليون ، وإن كنت أعتقد أن زوجتى أكثر دهاء من جوزفين . . . وليس اعتقادى فى دهاء زوجتى اعتقاداً مؤبداً . . . أبداً . . . هناك ملايين اللحظات التى أحس فيها أن زوجتى أكثر حمقاً من جحا الذى كان يحرض الصبيان على أهل بيت مدعياً أن هناك حفلة عرس تقدم الطعام مجاناً . . . فإذا مضى الصبيان إلى العرس المزعوم صدق هو كذبته ومضى وراءهم ، أمس فقط أمسكت زوجتى الجريدة وانهمكت فى القراءة . . . كانت تقرأ موضوعاً يقول عنوانه : « إتيكيت الصعود على درجات السلم والركوب فى الأسانسير » . وسمر العنوان عينى فوقه ، قلت لنفسى : كم من أشياء يجهلها الإنسان فى هذا العالم . . . هذا أحدها بلا شك . . . صعود السلالم ونزولها . . . مجرد دخول الأسانسير ، هناك إتيكيت لذلك ، وانحنيت على الجريدة ورحت أقرأ ، بدأ الموضوع هكذا . . . « أول ما تدخلين من باب منزلك تتركين الشارع وتبدئين فى الصعود على درجات السلم ، أو تركبين الأسانسير ، يجب أن تتصرفى وتتعاملى بلباقة مع الأشخاص الذين تقابلينهم حتى لا يتهمك أحد بأنك جاهلة بأبسط أصول وقواعد الإتيكيت ، وعلمى أيضاً زوجك وأبناءك هذه القواعد » . ما أجمل هذا الكلام ! . . . قلتها لنفسى ثم أدركت أن هذه مقدمة . . . وأننا لم نعرف حتى الآن إتيكيت صعود السلم ونزوله وكيف يكون ذلك ، وعدت أنحنى على الجريدة وأقرأ : « إذا قابلت

رجلا غريباً فى أثناء الصعود على درجات السلم فمن واجبه أن يحييك بابتسامة وبانحناءة خفيفة من الرأس ، وعليك أن تردى هذه التحية بنفس الأسلوب ، ثم عليه أيضاً أنْ يفسح لك الطريق ويتجه نحو الحائط لكى يتركك إلى جوار درابزين السلم » .

رفعت رأسى عن الجريدة وأنا أمتلئ بالدهشة . . . ما هذا ؟ . . . كيف تشجع الصحيفة زوجتى على هز رأسها لرجل غريب مع ما يستتبعه هز الرأس من ابتسامات يعلم الله مداها ، وعدت أنحنى على الجريدة وأقرأ . . . « الزوج يجب أنْ يتبع زوجته عند ما تكون فى صحبته عند الصعود على السلم ، ويسبقها عند النزول لتجنب أى حوادث فى حالة ما إذا انزلقت قدماها مثلاً أو وقعت » . ورفعت رأسى عن الجريدة ... ما أغرب هذا الكلام ! ! معنى هذا أن يتأخر الرجل عن زوجته وهى تصعد السلم حتى إذا وقعت وقعت عليه وكسرت رأسه ، فإذا نجا من ذلك وجب عليه أن يسبقها عند النزول حتى إذا سقطت سقطت فوقه وفقأت عينه ، وفى الحالتين يتصدى الرجل للخطر . . . أهذا هو إتيكيت صعود السلالم ونزولها ؟ . لماذا لا ينص الإتيكيت على أن يحمل الرجل زوجته عند صعود السلالم ونزولها حتى لا يصيبها التعب . . .

مذكرات ١٥ نوفمبر ١٩٦٤ .

اليوم عيد ميلادى . . .

فى مثل هذا اليوم . . . منذ ٣٢ عاما . . . وفى الساعات الأولى من الفجر . . . وحين كان المؤذن يقول شيئاً لم تتبينه أمى . . . فى هذه اللحظات ولدت ، لا أعرف كيف كان إحساسى وقتذاك ، فأنا لا أذكر اليوم شيئاً معيناً بالتحديد ، سمعت من أمى أنها كانت تتألم ، وأعرف أننى لو عشت حياتى كلها أقبل الأرض عند قدميها فلن أعيد الزمن وأمحو لحظة من لحظات ألمها العظيم ، أعلم ذلك وأحسه ، وتملؤنى الدهشة إزاءه .

وكان أبى كما يقولون يرتجف خارج الغرفة ، ولا أحد يدرى غير الله ماذا كان يدور فى نفسه من مشاعر ، وأغلب الظن أنه كان محكوماً بالخوف . فقد مات له ولد قبل ذلك خلال ولادته ، وكنت معقد رجاء كبير . ولقد قيل لى : إن أول سيدة تلقتى بيديها هى زوجة خالى الكبير . ولقد أحببتها حين كبرت حباً عظيماً لهذا السبب .

أخيراً ولدت . . . واستغرقت رحلتى نصف ساعة من الآلام تركت بعدها حجرتى المظلمة إلى الضوء .

من الغريب أن هناك شيئين لا ينكرهما الإنسان وإن كان لا يعرف عنهما أى شىء : الميلاد والوفاة . . . نحن نعرف تماماً أننا نولد . . . نحن على ثقة أننا سنموت . . . ورغم تأكدنا التام وثوقنا الشديد من هاتين الحقيقتين لا نذكر مشاعرنا ساعة الميلاد ، ولا نعرف أحاسيسنا ساعة الوفاة ، وتبقى أخطر حادثتين فى حياتنا مغموستين تماماً فى الضباب .

ما أشد حمق الذين ينكرون الخالق لأنهم لا يرونه . إن أحداً لم ير ميلاده هذه الرؤية الواعية ، كما أن أحداً لا يرى وفاته هذه الرؤية الواعية ، ما أغربنى اليوم ، ما الذى أفكر فيه . لماذا ينحدر تفكيرى نحو الموت ، هل يمكن أن تكون هذه الشعيرات البيضاء التى لاحظت وجودها هذا الصباح خلال مرورى على المرآة هى المسئولة عن ذلك ، لا أعتقد أننى اليوم بحالة طبيعية ، مجرد شعورى بأننى أحمل كل هذه الأعوام فوق ظهرى يكاد يكسر ظهرى ، ما أغرب شباب هذه الأيام ، إن أحدهم يعرف الحب فى الثامنة عشرة ، وينكسر قلبه فى العشرين ، ويغدو تفكيره نحو الموت فى الثلاثين ، يجب أن أنبذ هذه الأفكار وأنصرف لعملى ، كان اليوم هادئاً فى العمل ، ونسيت خلال مشاعر العمل أن اليوم عيد ميلادى ، ثم دق التليفون يطلبنى فى الساعة الثانية عشرة ، وضعت السماعة فوق أذنى ودهشت ، هذا صوت امرأة لا أعرفه . . . صوت يقول لى : كل سنة وأنت طيب . لم يكن هذا صوت زوجتى . . . قلت

بخوف وصوتى ينخفض رغماً عنى :

ــ من الذى يتحدث ؟

ــ قال الصوت النسائى بدهاء : كنت تقسم أنك لن تنسى . قالتها وضحكت . . . وتذكرتها من ضحكتها على الفور . . . عرفت من تكون . . . تلك كانت فتاة أحببتها فترة من عمرى ثم انضمت إلى سلسلة الأشياء التى فقدت منى وضاعت خلال حياتى على الأرض . . . وتفجرت داخل روحى ، وأنا أستمع إليها ، آلاف الصواريخ . وهزتنى فرحة طفلة وأنا أتحدث معها ، كم كانت رقيقة لأنها تذكرت عيد ميلادى . . . وانتهى الحديث بيننا بأن سألتنى عن دنياى وسألتها عن دنياها ، وتمنى كل منا لصاحبه ما يتمناه لنفسه . وعدت إلى البيت وأنا أحمل لها كثيراً من مشاعر الامتنان . . . ولم أكد أدخل البيت حتى فاجأتنى زوجتى بقصة طويلة عن الخادمة . . . وارتفع صوتها وهى تتحدث . . . ولم تكد تمضى دقائق حتى كانت تشير بيدها إشارات غاضبة فى وجهى . . . وتشاءمت من الطريقة التى تتحدث بها زوجتى ، قلت لنفسى : إنها تجرنى إلى معركة صغيرة قبل الغداء حتى لا أميز طعم ما يقدم إلى ، وابتسمت فى وجهها واعتذرت لها نيابة عن الخادمة وعن البواب وعن البقال وعن الترام المزدحم وعن الجو السيىء وعن كل أخطاء الحياة فى حقها . . . ثم جلسنا إلى المائدة . . . ورحت أنتظر . . . كنت قد تراهنت بينى وبين نفسى على أنها لن تذكر عيد ميلادى . . . ومر الوقت وأفكارها تذهب وتجىء لكنها لا تقترب من يوم مولدى أبداً . . . ورحت أقول لنفسى : إنها ستذكر اليوم ، لكن آلاف الأشياء الصغيرة كانت تشغلها تماماً عنى . . . وفى نهاية اليوم كانت قد طرقت مئات الموضوعات باستثناء هذا الموضوع ، وتفاءلت خيراً حين قالت لى قبل أن ننام : نسيت أن اقول لك شيئاً . . قلت لنفسى : ها هى أخيراً تتذكر . . . لكنها قالت إنها نسيت أن تخبرنى بأن أنبوبة البوتاجاز أصبحت فارغة وأن على غداً أن أتصل بالشركة

وأطلب أنبوبة . . . قالت كلمتها وأعطتنى ظهرها وانزلقت إلى النوم ...
ساعتها ... وساعتها فقط . فكرت فى الصوت النسائى الآخر . . .
واكتشفت كم كانت صاحبته رقيقة وعذبة !

مذكرات ٢٢ نوفمبر ١٩٦٤

مأساة الزوجة المصرية أنها عند ما تعمل تتصور أن من حقها أن تصبح رجلا فى البيت ، وعند ما تتزوج تقنع رئيسها فى العمل بأن كل تأخرها فى المجىء ولا مبالاتها وعدم تحملها المسئولية راجع إلى أنها زوجة وأن عليها أعباء هائلة فى البيت . . .

ويلعن الزوج رئيس زوجته الذى يؤدى لتقهقرها فى البيت ، ويلعن الرئيس زوج الموظفة لأنه يؤخرها فى العمل . . . وتتوزع المسئولية بين الرجلين وتنجو المرأة . . . هذه مأساة المرأة المصرية . . . إنها تنظر إلى الخلف فترى المرأة تحظى بحب الرجل واحترامه فتطالب بمثل هذا الحب والاحترام ، وتنسى تماماً ما كانت هذه المرأة تقدمه من خدمة لزوجها . . . خدمة تذهب إلى حد طقطقة أصابعه ، أما زوجتى فهى تطالب بحقها أولا وتنسى واجبها تماماً مثل عامل يتصور أن الاشتراكية هى مجموعة من الحقوق لا يقابلها أى واجب ، وتفرح الزوجة المصرية بالحرية التى لم تكن جدتها تستمتع بها ، لكنها لا توظف هذه الحرية فى شىء تثرى به حياتها ، إنما تقضى نصف عمرها وهى ترقب مذيعات التليفزيون لتحاول أن تتعلم منهن أسرار الأناقة والتجميل وارتداء باروكات الشعر .

أذكر كتابا قديماً قرأته لملك حفنى ناصف ، ولا أحسب أنى احترمت امرأة وأكبرتها وأحسست بمدى وعيها وجهادها من أجل الحياة ، كما احترمت ملك حفنى ناصف . . .

ولقد كتبت ملك حفنى ناصف مقالات كثيرة فى الجريدة التى كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد .

كتبت تقول :

« الزوجة المصرية مسلوبة الحق مظلومة فى كل أدوار حياتها . تراها يتشاءم منها حتى وهى جنين ، فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الحياة متقطبة والصدور منقبضة ، ترى القابلة وهى تحملها منكمشة لا تبدئ ولا تعيد كأنما كان لها بعض الذنب فى ولادتها أنثى . . . كذلك حالها فى التربية يتزوجها الرجل ويستبد بها إلى درجة تميت نفسها وتفقدها الإحساس والحياة ، ويحتقر الرجل المرأة فيجلس لطعامه وحده ولا يدعوها لمشاركته فيه ، فإذا فرغ منه تأخذ لقمة من هنا وأخرى من هناك كما يفعل الخدم . . . ويظهر احتقار الرجل للمرأة جلياً فى أفعاله وتصرفاته . إذا حزن يوماً لا يكاشفها بما يؤلمه . . . يخرج من البيت ولا يعود إليه إلا لأمر ضرورى وكل أسراره نهب للأصدقاء ، أما زوجته فلا يعدها إلا طاهية أو خادمة ، وأظن أن الرجل لولا بقية حياء فيه لما جاء منزله ، ولولا أن أكله فى الفنادق يكلفه كثيراً لما ذاق طعام بيته » .

تلك كانت حالة زوجة الأمس . . . أليس جديراً بزوجات هذه الأيام أن يقبلن أيديهن كل يوم مرتين لأنهن ولدن فى عصرنا هذا . . . عصر الحقوق النسائية التى لا تقابلها واجبات . . . وعصر الواجبات الرجولية التى لا تقابلها حقوق . . .

مذكرات ٢٧ ديسمبر ١٩٦٤

لو أستطعت أن أجمع الرجال . . . كل رجال الأرض . . . لنتفق على خطة موحدة إزاء النساء ، لو استطعت أن أقول لهم يا أزواج العالم اتحدوا فلن تخسروا غير القيود ، لو استطعت ذلك لاسترحت ، لكن ما يؤلمنى ويحز فى نفسى أننى أعلم أن الأزواج جميعاً يستعبدون على حدة ، ويقاومون على حدة ، وتقوم كل زوجة بكسر هذه المقاومة كل يوم بشكل منظم وهادئ ، حتى تذوب . . .

وهذه هى طريقة كل الطغاة.

دخلت زوجتى البيت منذ دقائق . . .

أعصابى كلها تحس وقع هذا الدخول . إن زوجتى مثل جنكيز خان الفاتح الشهير تحدث أكبر ضجة ممكنة حين تدخل مكاناً أو تخرج منه . ولقد كان البيت يسبح فى السلام منذ لحظات ، ثم انكسر حائط برلين فجأة ودخلت هى . عرفتها من وقع قدميها ، ثم تبينت صوتها الآمر وهى تصدر سلسلة من التعليمات للبواب . . . بعد ذلك سمعت صوت شىء يوضع على الأرض ، وكان لهذا الشىء رنين غريب ، وخرجت من الغرفة يدفعنى حب الاستطلاع فشاهدت سخاناً على الأرض . آه . . . لقد انتصرت زوجتى أخيراً وحضر السخان .

لقد بدأت معارك السخان فى بيتنا بالاحتجاج ضد البرد ، وهو احتجاج تلقيناه بفتور . ثم صدر قرار بمقاومته . ثم بدأت سلسلة إطراء للمخترعات الحديثة ومن بينها السخان ، ثم حصل تركيز على السخان ، وأخيراً تقدمت بطلب النقود .

ولقد كنت أستمع لكل ملاحظاتها وتنهداتها عن السخانات فى البيوت المجاورة وكأننى أشاركها رأيها ، حتى جاء اليوم المشهود وطلبت منى نقوداً للسخان . . . وأفهمت زوجتى أننى مفلس ، وأنه ليست هناك أى بارقة أمل فى الأفق للحصول على نقود ، وأن رئيسى فى العمل قد أصبح ينظر إلى بدهشة كلما صادفنى وكأنه مدهوش لأننى ما زلت أعمل ولم أفصل بعد . أما الأصدقاء فهم فى مثل موقفى من انعدام القدرة المالية ، والأقارب عقارب كما تعلمين ، وإمكانيات الاقتراض من البنك غير ممكنة لأن السلفة القديمة ما زالت تقتطع من المرتب . . .

— أنت صاحبة أرض ، لماذا لا تبيعين هذه الأرض وتشترين سخاناً من أجلنا . . .

قلت لها ذلك وأنا أكتم الضحك داخلى ، فزوجتى تملك سبعة

عشر قيراطاً من الطين ، وهذه القراريط تقع فى إحدى محافظات الوجه البحرى قريباً من الصحراء ، وأغلب الظن أن هذه القراريط تنتمى للصحراء الكبرى إذ أنها تدر إيراداً يقدر بالقروش كل عام . . . وبرغم كل هذه الحقائق يتملك زوجتى زهو عظيم حين تجىء سيرة الأملاك .

— قطعة الأرض التى نملكها فى الشرقية .

هذه بداية الحديث إذا كان الحديث أمامى ... أما إذا كنت غائباً . فإنها تقول بابتسامة متواضعة . . . عزبتنا فى الشرقية .

ويصدق السامع أن هناك عزبة ، ولقد حدث من فرط تكرار زوجتى لهذا الحديث أنها أحياناً تخطىء أمامى فتتحدث عن عزبتها فى الشرقية ، وليست هذه العزبة بالتى تدر أكثر من ثلاثين قرشاً كل شهر ... فالرجل الذى يستأجرها رجل طيب تبدو عليه علامات الانزعاج الشديد . والأرض فى المنطقة لا تعطى شيئاً ، والإيجار لا يتماسك أبداً فى جيب الرجل الطيب ، والأعذار التى يقدمها حين يتحدث عن الآفات التى أهلكت الزرع تؤكد أن هناك زرعاً فعلا ، وتوحى بوجود عزبة حقيقية . . . على أى حال . . . ليس المال هو الموضوع الذى يهم زوجتى من العزبة أبداً . . . هناك شيء آخر . . . هذا السبب هو كبرياء المحتد ... تتصور زوجتى أن الطين أحد أسباب الفخر العائلى ، وفى ليالى الصفاء تحكى زوجتى قصة هذه الأرض فتقول : إن الشرقية كلها والمحافظة المجاورة كانتا ملكاً لأحد أجدادنا الأتراك ، وكان رجلا يحب الطعام والنساء فأنفق كل شيء ، وتعاقب الأولاد يضيعون ثروة الجد حتى صفصفت فى النهاية على بضعة أفدنة وبضعة قراريط تقاسمتها مع العائلة ، وتضم الحكاية احياناً منظراً يقف فيه أولاد العم بالبنادق ويهجمون على أرض الفتيات ويبتلعونها . . . ولقد كنت أستمع لهذه القصص بحبور عظيم ، فهى فى نهاية الأمر لن تكون أسخف من حكايات الإذاعة ، ولا ضرر مطلقاً من هذه المحاولات التى تأتيها زوجتى لتثبت لى أنها تتفوق علي تفوقاً تاريخياً

وأن من حقها ممارسة نوع من أنواع السيادة .

ثم فوجئت بالسخان وقد حضر ، وقصت على زوجتى قصة طويلة مؤادها أن العزبة قد نقصت بعض حجمها ، وأدهشتنى هذه المعجزة . أرض الصحراء تتحول إلى سخان . . .

مذكرات ٣ يناير ١٩٦٥

يعتقد الكثيرون أن الزواج عمل سهل ، بمعنى أن كل إنسان يستطيع أن يأتى هذا العمل ، وهذه إحدى المغالطات الكبيرة فى مسألة الزواج ، لقد اتضح لى أن الزواج عمل صعب ، يشبه العملة الصعبة تماماً ، ولعل أقرب وجوه الشبه بينهما أنه بينما يكون للعملة الصعبة سعر رسمى ، يكون لها فى الواقع سعر آخر غير رسمى ، ومن ثم يجب ألا ننخدع بالمظاهر ، وفى دنيا الزواج يجب ألا ننخدع بالمظاهر أيضاً ، فأنا مثلا يبدو على أنى زوج سعيد ، عند ما يجىء إلى بيتنا أحد نهرع أنا وزوجتى للترحيب به ، ونرسم على وجوهنا ابتسامة بلهاء واحدة ، ونتساءل فى صوت واحد : هل يفضل الشاى أو القهوة ؟ ونعتذر فى صوت واحد لعدم وجود سكر ، ثم نتحدث فنبدأ بجمل متشابهة ونختم بضحكات لها نفس الصدى والرنين ، ويقول الضيف فى نفسه : ما أجمل هذا التفاهم ، فإذا انصرف الضيف وجلسنا وحدنا نظر كل منا إلى صاحبه نظرة عالم الحشرات إلى حشرة جديدة فوجىء بوجودها تحت ميكروسكوبه .

ونتكلم أحياناً فيخيل إلى أن هناك سوراً بيننا ، سوراً غير مرئى يحجب الكلمات ويمتص صدى الصوت وتضيع فى حجارته المعانى فلا يفهم أحدنا أبداً ما يقوله الآخر ، وأحياناً أحسب أننى تزوجت امرأة تركية أو صينية ، ليس هذا الكلام عربياً ، لكن حروف الهجاء فيه وتكوينات الجمل عربية ، أين تكمن الصعوبة إن لم تكن تكمن فى المعانى التى يقولها كل منا للآخر وأسلوب التفكير المختلف ، ولقد وصلت إلى اقتناع عميق

بأن زوجتى لا تهتم بالأمور العامة ولا بالمسائل ذات الصفة الإنسانية .

أحياناً تقع فى عالمنا الصغير حوادث ، وتهزنى هذه الحوادث إلى الأعماق ، وتثير فى إحساساً بالقلق أو التشاؤم أو الخوف ، وأتلفت إلى زوجتى لعلى أجد صدى لهذه الأحاسيس فأطمئن إلى أننى بخير ولم يصبنى الجنون بعد ، لكن عبثاً أجد عندها صدى لما لدى من أحاسيس ، الذى يحدث أننى أجدها غارقة فى وسط عالمها الخاص ، وهو عالم نسائى بحت ، عالم لا وجود فيه للدول ولا للقنابل الذرية ولا لآبار البترول ولا للأزمات الاقتصادية . . . عالم غريب محدود تكاد جدرانه وأرضه وسماؤه تنحصر داخل الفستان الذى ترتديه الزوجة .

إننى أذكر حادث اغتيال لومومبا ، وأذكر أن الإحساس الذى ملأنى يومها كان إحساساً بأننى ساهمت بطريقة أو بأخرى فى مقتله ، ولقد سقطت فى وجوم كئيب وملأنى الشعور بالحزن ، واكتشفت زوجتى أننى حزين ، لم تعترض على هذا الحزن إنما سألت عن سببه ، وحين علمت لم تحزن مثلى وإنما قالت لى بهدوء وبساطة .

ـــ انت مش زعلان عشان السبب ده . انت أصلك غاوى نكد .

لهذا السبب ومئات الأسباب غيره قررت أن أحب .

نعم . . . قررت أن أقع فى الحب وأن تكون لى مغامرات مثل غيرى من الرجال . . . وقررت أن أبدأ بإحدى صديقات زوجتى ، وهى سيدة جميلة لضحكاتها ذيل غريب ، وبدأت أنظر لهذه السيدة نظرات حالمة ورقيقة ، وأبتسم كلما صادفتنى عيناها وأنا أتحلق فيها ، ثم اكتشفت أنه ليس هناك أى رد فعل على الإطلاق ، وحاولت أن أعرف السبب ، وأدهشنى السبب ،لم أكن أنظر إليها نظرات حالمة وإنما نظرات مذعورة؛ فهناك شبح زوجتى دائماً ، وهناك الرعب الذى خلقته داخلى والذى لا يفتأ يلازمنى وينغص على كل مشروعات الحب . . . لا بأس . لقد كانت هذه غلطتى من البداية ، فكيف أهاجم زوجتى فى عقر دارها .

يجب أن أبحث عن حب خارج منزلنا .

سأحب فى مكان العمل إذن، وبدأت أختار من سيقع عليها عبء الحب، واكتشفت أن كل الفتيات اللائى يعملن معنا يتمتعن بقسط وافر من الرجولة، لا أمل فى العثور على الحب، ويبدو لى أن زوجتى ستكون هى طبق الطعام الوحيد الذى قدرت الأقدار أن أظل أطعمه حتى الموت...

مذكرات ١٧ يناير ١٩٦٥

تعبر زوجتى عن فرحتها بالحياة بأحد طريقين : إما رفع صوتها وإعلان هذه الفرحة بشكل مزلزل ، وإما بالتهام مزيد من الطعام . والعيد من بين المناسبات السعيدة، ولقد عبرت زوجتى عن فرحتها بالتهام نصف صاج من الكعك .

راقبت زوجتى وهى تأكل كعك العيد ودهشت . كانت تأكل وهى تتحدث . . . وكانت تتحدث بسرعة وتأكل بنفس السرعة ، ولم يظهر لى أى تعارض بين الحديث والأكل . . . على العكس من ذلك ، كانت تستغل الحديث فى خدمة الطعام . . . فهى تفتح فمها وتوظف عملية النطق فى المضغ، فإذا قررت ابتلاع الكعكة قالت كلمات يمكن نطقها وفمها مغلق . . . وأدهشتنى هذه المقدرة ، وعجبت لذوقها الردىء فهذا هو الكعك الذى صنعته حماتى ، وهى سيدة شديدة الطيبة وكل عيبها أن إجادتها لصنع الطعام لا تتفق مع إجادتها للحديث فى السياسة ، وأعتقد أن حماتى هى السيدة الوحيدة التى تتابع كل الأزمات الدولية بصبر لا ينفد، ولطول مرانها السياسى أصبحت لها آراء فى مواقف الدول وتصرفاتها ، وهى آراء يدهشها أن الأيام لا تثبت سدادها ، المهم أن حماتى هى التى صنعت الكعك ، وإذا كان الحديث عن الغائبين لا يصح فإننى أفضل ألا أنتقد الكعك ، كل ما فى الأمر أن له طعماً يشبه النشارة ، وهو يحدث فى الحلق نوعاً من أنواع السد الذى يتعذر معه النطق عدة دقائق ، إلى

جوار ثقله الشديد فى المعدة ، وهو ثقل يخيل للإنسان معه أنه يحمل فى بطنه قالباً من الطوب . كيف يتفق هذا مع الطريقة التى تأكل بها زوجتى هذا الكحك ؛ أيمكن أن تكون فكرة المجتمع الحازئة عن الحماة هى التى سممت نظرتى لموضوع الكحك ، أم أن الحب بين زوجتى وأمها هو المسئول عن التهامها الشديد لكل ما تصنعه الأم . لا أعرف . . . كل ما أعرفه أننى أمام ظاهرة تستحق التسجيل والدراسة . الحقيقة أننى ألاحظ على نفسى فى الأيام الأخيرة ميلا إلى تسجيل الظواهر ودراستها مع عدم إبداء الرأى فيها ، وهذا معناه أننى قد أصبحت فيلسوفاً ، لا شك أننى قد أصبحت فيلسوفاً ، إن الزواج بعد فترة معينة يجبر الإنسان على التفلسف . إن الفلسفة هى كلمة ، لماذا ؟

ومضيا بالفلسفة إلى نهايتها القصوى لاحظت أننا كشعب نحب الطعام بوجه عام ونحب الكحك بوجه خاص .

نحبه إلى الدرجة التى تثير كثيراً من المنازعات حوله ، وهى منازعات تصل إلى حد دخول المحاكم والوقوف أمام القاضى ، ولا يثير الكحك منازعات تنتهى بالطلاق ، إنما يثير (شأنه شأن الفن الجيد) مناقشات وأسئلة وأجوبة ، قرأت فى الجريدة منذ أيام سؤالا وجه لأحد رجال الدين عن الكعك . . .

لكن ذلك موقف المجتمع من الكعك . . . هذا لا يفسر أن تأكل زوجتى نصف صاج منه . . . إن الكمية التى كانت ترقد أمامها فى الطبق وتشبه كثيباً من الرمال لو وضعت بشكل مسطح فسوف تملأ نصف صاج . إن أهمية الكعك تجعلنى أفكر فى القيام بدراسة علميه جادة اسميها : كعك العيد قديماً وحديثاً ، وتتناول الدراسة طعمه ونشأته التاريخية والتحولات التى طرأت عليه وعلى جسمه ، والأسر التى تخصصت فى صناعته والأسر التى تخصصت فى الشجار بسببه وعدد القضايا التى رفعت من أجله ، وموقفه فى ظل الرأسمالية ومستقبله فى ظل الاشتراكية . . .

وقد أجد فى بطون الكتب القديمة حرباً نشبت بسبب كعكة . . . إن بحثاً كهذا جدير بأن يثير المجتمع لكننى لا أبحث عن إثارة المجتمع هذه الأيام . . . وأغلب الظن أن الزواج سيقتل موهبتى ويمنعنى من إتمام هذا البحث التاريخى الهام . . .

مذكرات ١٤ فبراير ١٩٦٥

يا رب أريد أن أحب .

إن الثعابين تغير جلدها كل عام مرة ، والطيور ينبت لها فى فصل الربيع ريش ملون، وتطل من عيون الحيوانات نظرة حانية عند ما تعثر على الإلف . . . وأنا وحدى زوج محنط من الأزواج الذين لا يتلقون من زوجاتهم غير نظرات العتاب وصرخات الغضب . ما الذى دهى زوجتى ، يخيل إلى أنها تفقد رقتها كلما كبرت فى السن، أليس العكس هو المفروض ؟ ما سر هذا الحصار الذى تحيطنى به هذه الأيام؟ هل عرفت بغريزتها السادسة أننى أفكر فى الحب ؟

هل اكتشفت شيئاً من المذكرات . . . لم يحدث ذلك بدليل أننى لا زلت حياً أرزق . ما هو الموضوع إذن ؟

كل ما أعرفه أنها فى هذه الأيام تقول لى عند ما أدخل فى المساء :

ــ أين كنت ؟ . . ما سر هذا السرور البادى عليك؟ . . من أين أنت قادم ؟ . . اقترب منى . . . دعنى أشم رائحة فمك . . . ها ها . . . نعناع . . . منذ متى وأنت تأكل النعناع ؟ . لماذا لا تقول لى أين كنت ؟ لماذا لا تعترف ؟ . لن أغضب ؟ !

يا إلهى... ماذا أقول لها ... لقد جلست مع ثلاثة أصدقاء وشرب كل منا كأساً واحدة لنقاوم البرد . . . لم أشرب غيرها ، ومزجتها بالكوكا كولا . . . هل هذه جريمة . . ؟

قلت لها : إنها كأس واحدة فقط . . . قلت لها : إننى كنت مع أصدقاء

وكان أحدهم يحتفل بعيد ميلاده فشاركناه فى احتفاله، ولم أكد أنتهى من القصة حتى انفجرت زوجتى فى بكاء عميق وراحت تنهنه . . . تصورت فى البداية أنها تمثل هذا البكاء ، ثم أقنعتنى الدموع الغزيرة بأنها تبكى حقيقة ، وطارت الكئوس العشر من رأسى على الفور ، أحسست فجأة باليقظة . . .

وبعد أن تحطمت أعصابى تماماً سألتنى :

— قل لى أين كنت حقيقة ؟

وحاولت أن أقول لها الحقيقة ولكنها رفضت أن تستمع . . .

— هناك امرأة فى الموضوع .

— يا سيدتى يا زوجتى أقسم لك بالله أنه ليست هناك امرأة . . .

أشاحت بوجهها ورفعت يدها وفتحت فمها وهمست :

— يجب أن تقول الحقيقة . . . هناك امرأة فى الموضوع . لماذا لا تعترف . . ؟ أريد الحقيقة كاملة . وخيل إلى أن زوجتى لا تريد الحقيقة وإنما تريد أن تسمع ما فى ذهنها هى ، تريد أن تؤكد لنفسها أن زوجها رجل مطلوب ، وأن النساء تجرى وراءه ، وأن له مغامراته . وقررت أن أكذب . . . وبدأت أقول لها : إن هناك امرأة فى الموضوع . . .

قالت لى فى دهاء شديد : هل هى راقصة . . .

وفاجأنى السؤال فى الحقيقة ، لم أعرف ما الذى يريحها لأقوله، أخيراً فكرت وقلت لها : إنها ليست راقصة فى الحقيقة ، إنها أشبه ما تكون بذلك . . .

وارتسم فى وجهها شعور غريب بالراحة ، ما أجمل أن تحس ربة البيت أن منافستها راقصة . . . هذا يعطيها إحساساً بالتفوق والامتياز . . .

قلت لها دون تردد : أنت تعرفين صديقى محمود . . .

قالت : آه . . . هذا رأيى فيه دائماً . . . هذا رجل فاسد لا يمكن أن يقود أحداً إلى الخير . . . أكمل القصة . . . أريد الحقيقة كاملة، إلى

أى حد وصلت العلاقة ؟ .

قلت : إلى الحد الذى لا يخجل أحداً . . .اقتصر بقاؤنا على الأماكن العامة ، وضغطت يدها مرتين ، ثم شربت اليوم معها كأساً فى حضور أكثر من عشرة أشخاص . . .

قالت زوجتى : يجب أن تترك صديقك محمود إلى الأبد . . . اختر لنفسك واحداً من اثنين : أنا أو هو . . . سوف أنسى كل شىء عن هذه الراقصة . . . سأنسى علاقتك بها . . . فقط يجب أن تعدنى بأن تقطع علاقتك بصديقك هذا ... وبكل أصدقائك أيضاً ،لم نر من وجههم غير الخسارة . . .

وفهمت ساعتها سر المناورة ، ها هى القوات المعادية تكشف عن خططها وتطلب منا قطع علاقاتنا بكل الأصدقاء . . .

وعدتها بذلك . . ومرت الليلة .

يارب . . . أريد أن احب حقيقة . . .

أريد لظنها أن يتحقق . . . ولو مرة واحدة .

مذكرات ٢١ فبراير ١٩٦٥

ما أعجب الحب !

اسمها أمل. لم أكن أتصور أن وقتاً سيجىء على وأنظر فى عينيها لأقرأ هل هى سعيدة أو تعيسة ، بعدها أقرر أن أكون سعيداً طبقاً لما تقوله النشرة الجوية التى تصدر من عينيها .

أكتب هذه الكلمات وأنا زو ج وأب . . . ويبدو لى أننى قد جننت . . . أو ربما عدت عشر سنوات إلى الخلف ، إن الإحساس الذى أعيشه هذه الأيام لا يمكن أن يحسه رجل فى مثل عمرى .

ما أعذب الحب وما أرق ما يمنحه للإنسان من مشاعر . كنت قبل أن أعرفها ضجراً متبرماً لا أجد طعماً لشىء فى حياتى غير سجاير البلمونت،

ثم بدأت شركة البلمونت بعد إقبال زبائنها تعبث بهم وتغير الفيلتر يوماً وتغير الدخان يوماً آخر حتى لم يعد للبلمونت طعم فى فى . والآن تغير كل شيء .

لم تعد السجائر الرديئة توقظ تمردى أو تشعل ضجرى ، أصبحت أدخن ولا أتأمل من السجاير غير دخانها وهو يصعد فى حلقات ترسم أشكالا راقصة فى الهواء .

كيف حدث ما حدث . هل أحببتها لهذا الحد . . . أهى رقتها العظيمة أم حزنها الصامت أم ضحكتها الصافية أم عيناها اللتان تبعثان دفئاً أحس معه أننى أتصبب عرقاً وارتباكاً ورغبة فى قول الشعر . ما أتعس أن يكون الإنسان مجرداً من الموهبة . ما أتعس أن يحب الإنسان ولا يكون شاعراً ليعلن حبه لكل الكائنات فتشترك معه فى الفرح . . . ابتسامتى تضىء بالفرح . . . زوجتى تلاحظ ذلك وتسأل :

— أنت مش طبيعى ليه اليومين دول ؟

الصوت يرمينى من أعلى قمة فى السحاب إلى الأرض . أسمع صوت عظامى تتهشم . . . ابتسمت ابتسامة مجرمة وزحف الشحوب على وجهى وقلت لزوجتى :

— أبداً مش طبيعى ازاى يعنى . . ؟

— انت بتسألنى أنا . . ؟

— مش انتى اللى بتقولى .

— يعنى بترد على السؤال بسؤال ؟

— أبداً والله . . .

— لا انت مش طبيعى . . . حاسه كده اليومين دول إنك نافش ريشك ، بدال ما تكون مكسوف تقوم تنفش ريشك .

— مكسوف ليه ؟

— ما انتش عارف ليه ؟

آه . . . إن زوجتى تتحدث عن القصة الوهمية التى حكيتها لها عن الراقصة لأرضى غرورها ... يا زوجتى الصارمة، أنت تتحدثين عن حكاية وهمية ، وهناك الآن شيء حقيقى لا تعرفينه فما أجمل السر وما أصفى الغباء وراحته . . . أنت لا تعرفين أننى فى الطريق لامرأة . . . لكننى أعرف وهذا هو المهم . . . الطريق واسع تملؤه الأتربة التى كرهتها فجأة لأنها ستلوث ياقة القميص الذى اختير بعناية ، والناس تتحدث فى آلاف الأشياء وأنا أسير . . . الآن أستطيع أن أفهم معنى خلق هؤلاء الناس جميعاً . . . أيها الحب . . . ها هو وجهك العظيم ينتظرنى فى الكازينو المظلم على النيل . . . الدنيا شديدة البرودة لكننى أمتلىء بالدفء والإحساس بالإثم مع شيء من الخوف والفرح . . .

اخترت مائدة منعزلة وجلست أمامها وطلبت لها كوباً من الشاى وأخرجت علبة السجاير ووضعت السيجارة بالعكس فى فمى وأشعلتها فضحكت ضحكة صغيرة . السيجارة الثانية وقعت من يدى مرتين فما أحلى نظراتها وما أرق التعبير فى وجهها . . . كل الجالسين فى الكازينو يتهامسون وتتماسك أيديهم فى رقة . . .

وصل الشاى ووضعه الرجل على المائدة وانصرف . . . مددت يدى لأمسك يدها فأمسكت كوب الشاى ودلقته . . . لحظات من الفزع والضجيج الذى أيقظ كل العاشقين حولنا وجعلهم جميعاً يتأملوننا بغضب يمتزج بالسخرية . انتقلنا بعد إحصاء الخسائر لمائدة ثانية . ماذا أقول لها . . . أريد أن أقول كلاماً لم يقله رجل من قبل لامرأة . أريد أن أقول لها آلاف الأشياء . أريد أن آخذها تحت جفونى وأسدل عليها هذه الجفون . . . لكننى لا أقول شيئاً وأكتفى بالارتعاش والنظر فى وجهها . . .

— بتبص لى كده ليه . . . بتلخبط .

ليس للرقة غير هذا الوجه الذى يجلس أمامى ، فما الطريق إلى عقلها لأعرف فيم تفكر . وطال الصمت ورحت أستمع لصوت النيل وهو يمس

الشاطئ ، وقفزت قطة هناك نحو سمكة صغيرة ألقتها المياه على الشاطىء ... وغرست القطة أظفارها فى ظهر السمكة التى استسلمت أخيراً . . . ماذا يقول الناس فى مثل هذا الموقف؟ كيف يعبرون عن حبهم ؟ . إن داخلى طاقة تستطيع أن تنظم من نجوم السماء عقداً كاملا وتهديه إليها ، لكن هذه الطاقة كلها سجينة داخلى مثل عفاريت سيدنا سليمان؛ فمتى تفتح الزجاجة ويخرج الدخان ويطلق سراح المارد . . .

. . . .

وفتح الجرسون فى المائدة المجاورة زجاجة الليمون ، وعادت القطة من شاطىء النيل وهى تمسح عن وجهها طعم السمكة ، وازدادت برودة الجو وتحرك العشب الجاف الذى ينمو إلى جوار الشاطىء . . . ونظرت فى وجه « أمل » وارتعشت . . . عفريت سيدنا سليمان لم يزل سجيناً فى زجاجته ، ويبدو أنه مستدفئ أو نائم . . . والموائد جميعاً تكشف عن رؤوس متقاربة تهامس ، والشماسى تنكفىء على الموائد وتزيد من عتمة الظل تحتها ، والدنيا ليل فما قيمة الشماسى ، والضوء الأصفر الشاحب يبدو كعيون أصابها رمد قديم ، والحديث هامس وخافت والحب يحمل عينين كعيون المصابيح فما أسخف البرد ، وتساءلت عن حكاية الشماسى وناديت الجرسون وهمست إليه بالسؤال فلمعت عيناه كأنما وقع على كنز ، وحنى رأسه وقد زادت كمية الإثم فى صوته وقال : سعادة البك . . . سأدبر لك شمسية بعد قليل . . . من عينى الاتنين .

ولم أفهم وأعيانى تفسير ما قاله . . . سألت عن قصة الشماسى ولم أسأله عن شمسية محددة . وعدت أتأمل تضاريس الكازينو وموقعه فتملؤنى الدهشة . النيل الساكن يبعث على النوم والموج المظلم يستثير فى النفس رغبة مستريحة فى الرقاد ، والهمسات التى تصدر من الموائد تحمل ملايين الأشكال وتختلف الأصوات التى تمضى بها لكنها فى نهاية الأمر تنبع وتصب من مضمون واحد... الرجال جميعاً يقررون فى غرور

رغم انعدام الفوارق بينهم أن كل واحد فيهم نسيج وحده وأنه ليس مثل الآخرين ، والنساء جميعاً رغم الظلمة التى تجعل الفارق بينهن ضعيفاً يقررن فى ثبات أن المرأة هى التى تعرف الحب وتكتوى بناره ، وأن الرجال جميعاً مخادعون . وكمية الوعود الصادرة من الموائد تكفى لبناء ألف جنة صغيرة . ويخيل إلى أن هناك انتخابات غير مرئية وأن كل واحد من العشاق مرشح يشد قوس الكذب ويرمى ، ويبتسم الوجه الأنثوى ويطالب العاشق الغارق فى الحديث بأن يقلب الإسطوانة على وجهها الثانى ليستمر الغناء ، وعلى مبعدة يقف الجرسونات كأنهم لصوص فى معبد الحب ، لصوص يغمضون أعينهم عما يجرى وإن كانوا يفتحونها حتى لا يدس أحد العشاق شوكة أو سكينة فى جيبه كتذكار .

والوقت يمر وأنا أجلس صامتاً أنظر فى عينيها ، ولا أدرى ماذا أقول . . ومدت يدها وأمسكت يدى . ماذا تكون رعشة عصفور صغير فى عشه وهو يستقبل الندى إن لم تكن هى رعشة يدى . أراك عصى الدمع شيمتك الصبر . أما للهوى نهى عليك ولا أمر ؟ . . . جاء الصوت من مائدة يجلس إليها عاشقان من غزة ، وكان أحدهما يمسك ترانزستور صغير فتحه فجأة على الأغنية . . .

أعترف بأننى ضعيف أمام هذه الأغنية .

نعم أنا مشتاق وعندى لوعة . . . ولكن مثلى لا يذاع له سر .

أحسست أننى أنهار . . . شددت على اليد التى امتدت إلى . كانت يدها باردة وخيل إلى أنها ترتعش .

لا ريب أن هذه هى سرعة الضوء الذى يستحيل فيه كل جسم إلى ضوء .

إن المرأة تستطيع أن تدفع الرجل إلى الموت وتقنعه بالحب إنه يلد ولا يموت . . الجرسون ينحنى على ويهمس أن الشمسيه قد خلت فتفضل . . . ونهضت واقفاً ونهضت هى وتبعناه كالمسحورين إلى الشمسية

حيث تصبح كتفك عند الجلوس جوار كتف الحبيبة تماماً ، وحيث يمكن أن تلتقى الرؤوس خلال هزة الرأس عند الحديث المعتاد . . . ولتكمل الظلمة وشاعرية المكان ما بقى بعد ذلك .

بصراحة لم أشعر بأى شاعرية . . . على العكس . . . دهمنى مثل سيارة مسرعة خوف مفاجىء يمتزج بالتقزز . . . كانت كل الشماسى المجاورة ساكنة كأن على رأسها الطير... وبدلا من الحديث اللطيف كانت القبلات المسروقة الصامتة تملأ جو الشماسى المظلم بفقاقيع لا ترى وإن كانت تحس . . . وعبث العاشق صاحب الترانزستور به فانبعثت منه إحدى الأغنيات السخيفة ، وتلاعبت عصا من النيون فتشتت انتباهى وتساءلت : أيمكن لعصر الترانزستور والنيون أن يكونا بقعة ملائمة لنمو الحب . . . إن الجالسين تحت الشماسى يظهرون كأنهم لصوص يتقاسمون شيئاً سرقوه ويتعاركون فى صمت خشية أن يستيقظ أهل البيت ويمسكوهم . . . كيف يمكن للحب أن يعيش فى الأماكن المظلمة هكذا . . . الصراصير هى وحدها التى تحب العيش فى الأماكن المظلمة . . . وتراخت يدى من يدها وأحسست أننى سخيف ومضحك وأمتلىء بالبرد الشديد ، وطلبت كوباً من الشاى ، وطلبت هى زجاجة من الليمون فدهشت لقدرتها على شرب زجاجة من الليمون المثلج . . . لكننى رجل أقترب من الكهولة وأسير وسط العقد الخامس والثلاثين بنفسية شيخ فى الخامسة والتسعين ولهذا أتشبث بكوب الشاى وأحتضنه بيدى وداخلى شعور بالخوف الشديد الذى اكتسب صفة الفزع . . . هذه الشماسى كلها يمكن أن تتعرض لكبسة من الآباء أو الأزواج أو الزوجات الغيورات ، يجب أن أنصرف فوراً ...: إننى أشم رائحة زوجتى ويجب أن أنصرف على الفور ... مالك . ماذا جرى لك . ما الذى ضايقك . ألا يعجبك المكان. هل تحس بالبرد . . . أنت لا تحبنى كما يجب . . . أبداً يجب أن أنصرف على الفور من هذا المكان ! .

مذكرات ١٤ مارس ١٩٦٥

عدت إلى البيت وإحساس الخوف لم يزل لاصقاً بى. . . وخيل إلى خلال طريق العودة أن زوجتى ستنظر فى وجهى وتكشف كل شىء ، واحترت كيف أدارى ما حدث وأبدو طبيعياً ، ثم مررت خلال عودتى بمكان يبيع الزهور . . . لم يكن دكاناً بالمعنى المفهوم إنما كان فجوة بين عمارتين، وكان الرجل يضع فى هذه الفجوة بعض الجرادل التى تمتلىء بالزهور فإذا جاء الليل زحزح الجرادل بعيداً ومد فراشه فى الفجوة ونام جنب الزهور . . . وأيقظت الرجل وسألته أن يعطينى عدة ورود . . . وتثاءب الرجل وسأل عن الساعة ثم مد يده وأخذ الشلن وأعطانى حفنة من الورود. ما أقسى الطريقة التى تعامل بها الورود فى مصر. قلت لنفسى : إذا وجدت زوجتى مستيقظة أعطيتها الورد ، فإن كانت نائمة ألقيت به من الشباك ونمت أنا الآخر . . . كانت زوجتى مستيقظة ونور البيت كله مضاء . . . وأنا أصعد السلم كنت أحس أننى أنزله ، وجرفنى الخوف وشحب وجهى كما لاحظت زوجتى فيما بعد، ودسست المفتاح فى ثقب الباب ودخلت . . . كدت أصرخ فى البداية . كان وجه زوجتى أمامى مباشرة . حصل إيه ، تساءلت فزعاً . وقالت وهى تبتسم ابتسامة باردة وكبيرة : إيه حصل إيه ؟ . ولما أجابتنى عن السؤال بسؤال ، أيقنت أن شيئاً لم يحدث ، وهنأت نفسى وهدأت من خوفى وحاولت أن أبتسم .

قالت زوجتى وهى تغلق الباب الذى نسيته مفتوحاً : مال وشك مخطوف. وتحسست وجهى وقلت : أبداً...لقيت نور البيت كله منور خفت يكون فيه حاجة حصلت . تساءلت وهى تقرض أسنانها : حيكون حصل إيه يعنى؟..آه..إنها تلجأ الآن لطرق التعذيب التى كان يلجأ إليها الجستابو... تحاول أن تقرأ أفكارى لتعاقبنى على قراءتها . . . مددت يدى بالورد وقلت لها :

— الورد ده ظريف خالص . . . خدى .

وأمسكت بالورد وشمت رائحته ، ثم أزاحته بعيداً وزحف على وجهها شبح ابتسامة خبيثة وهى تسأل : بيوزعوا عليكوا ورد فى الشغل وانتوا خارجين بالليل . . . وضحكت محاولا أن أزدرد خلال ضحكتى كل ما بقى من خوفى .

— أبداً . . . أنا لقيت الراجل صاحى قلت اشتريهم .

الراجل مين . . . الراجل بتاع الورد . ورد إيه . الورد اللى هناك ، هناك فين . . . هناك كده . . . انتهى الأمر ولم تصدق زوجتى قصة الورد وبقى على أن أقدم تفسيراً آخر لهذا الورد . . . وهكذا تنطبق الحكمة الجنائية : « إن المجرم يحوم دائماً حول مكان الجريمة حتى يضبطه رجال العسس » .

لقد كنت فى حديقة فإذا بى أحمل الحديقة معى وأنا عائد إلى البيت. وإذا بى أحمل جسم الجريمة وأقدمه إلى العسس .

قلت وأنا أخلع رباط الرقبة فى حرص بغير أن أفكه حتى يظل مربوطاً كما هو للمرة القادمة : الشك ده حيودينا فى داهيه . انتى متصورة انى ايه يعنى . روميو . دون جوان . كازانوفا . قيس . فاكره إيه . غنى وفاضى وحبوب . أنا راجل غلبان موظف ضرورى أشتغل وأسهر وأتعب . . . يبقى لما أجيب لك وردتين وأنا راجع تفتحى لى محضر . . . إيه البواخه دى . زى ما نكون عايشين فى فيلم .

ظلت زوجتى صامتة حتى انتهيت من ارتداء البيجامه ، وقالت فى هدوء :

— حد يشترى ورد بالليل . . . عمرك ما اشتريته الصبح . . . قلت لها وأنا آخذ الورد وأستنشق رائحته : يا سلام على ثانى أوكسيد الكربون . وحكيت لها حكاية العاشقين اللذين حاولا الانتحار فى قصر قديم فاختارا حجرة مغلقة وفرشاها بالورود وناما حتى الصباح فقتلهما ثانى أوكسيد الكربون المعطر . وانتهت الحكاية فاتسعت عينا زوجتى من الدهشة .

قالت ببطء وهدوء : وانت عايز تموت مين بالورد ده ؟

وأنشبت أظفاري فى الضحك وأطريت ذوق زوجتى فى اختيارها الوقت المناسب لتفجير النكت ورحت أضحك وأقول وسط الضحك : كم تحتفظ بدم خفيف . . . وأشرت خلال هذه المسرحية القصيرة التى استمرت ثلاث دقائق إلى أن حكاية الورد هذه مجرد حكاية وليست لها دلالات أبعد من ذلك . وانتهيت من تناول العشاء وشربت الشاى وأحسست أننى قد تخلصت تماماً من الشعور بالخوف . . . بعدها لم أتمالك نفسى من التفكير فيها . . . وجدت أفكارى تحوم حول الورد والحدائق ، ثم تنتهى إليها . . . ما أعذب التفكير فى الحب نفسه وما أغرب الزواج ، يخيل إلى أن زوجتى أصبحت تشبهنى . الالتصاق الشديد بإنسان يجعلنا فى نهاية الأمر نشبهه . . . أحياناً أرى زوجين عجوزين فأتصور أنهما شقيقان وليسا زوجين . . . أشعلت سيجارة وقلت لنفسى : إن الرجل يحب حتى تزيد عدد العيون التى تبكيه بعدموته . . . ترى ماذا يجرى للإنسان بعد موته . . أين يذهب وكيف يمضى أوقات فراغه من جسده . حدثتنى زوجتى عن آلاف الأشياء وكنت أستمع إليها نصف مغمض وأنا أفكر فى الأخرى ماذا لو انفتح رأسى فجأة وشهدت زوجتى ما يدور فيه من أفكار . . . كم تستولى عليها الدهشة ، ما أعذب النوم .

مذكرات ٢١ مارس ١٩٦٥

ناولتنى زوجتى خطاباً اليوم .

كان الخطاب مفتوحاً ، ودهشت لأن الظرف يحمل اسمى ، وبرغم ذلك فالخطاب مفتوح ، إلا ريب أننى قرأته ، ولكن ما دمت لم أقرأ الخطاب فلا ريب أن زوجتى هى التى قرأته باعتبارها ممثلة رسمية لى . . . ضايقتنى فكرة التمثيل الرسمى وبدأت أقرأ . هذا توقيع جدى . خطاب من جدى . تذكرت فجأة أن لى جداً فى إحدى قرى مصر ،ودهشت

لأنه يكتب إلى ، وبدأت أمتلىء بالحزن وعيناى تمضيان فى القراءة . كان جدى يتحدث إلى فى رقة مشوبة بالعتاب ، إنه يموت وإننى يجب أن أحس على دمى وأراه قبل أن يموت . أنهى الجد خطابه بقوله مهدداً إننى إذا لم أسافر إليه فسوف يحضر هو إلى . . . وكان هذا التهديد المضحك يتعارض مع تصريحه بأنه يموت . . . ولم أدر هل أضحك أم أبكى . . ؟ ونظرت إلى زوجتى .

— أنا مسافر بكره حضرى لى الشنطة

وامتثلت لأوامرى فزادت ثقتى بنفسى وعدت أقرأ الخطاب . أحسست بالحنين نحو قريتنا التى لم أرها فى حياتى أكثر من مرات ، ونازعنى نحو الحيوانات والأبقار هذا الحب القديم المفقود الذى لا ريب كان ناشئاً بين رجل الكهوف وحيوانات المنطقة . . . وتذكرت أيام طفولتى حين كان جدى يجىء لزيارتنا فى بيت أبى وينشأ بينه وبين أمى هذا الصراع الخفى الذى يمثل القرية والمدينة . وكانت المدينة (أمى) تنظر إلى القرية (جدى) نظرات متعالية متكبرة . . . وكان جدى بذكائه الريفى المستتر يهرب من هذه النظرات ومن الصراع السافر بأن يحتضننى مع إخوتى وكأنه يقول لأمى :

— لولا هؤلاء الأولاد لما احتملناك ولا احتملنا كبرياءك .

وكان جدى يحضر لنا كثيراً من الفراخ والفطير والبيض والعيش الرحالى عند ما يجىء للزيارة ، وكانت هذه الأشياء بالنسبة لأمى . . . بمثابة تأشيرة الدخول إلى البيت . . . وكنت أحب طعام القرية حبا شديداً لكننى كنت أحب جدى أكثر مما أحب الطعام الذى يحضره ، فقد كان الرجل العجوز غريباً كل الغرابة .

كان يصلى ويقرأ القرآن ويقول الشعر ويغازل البنات الصغيرات ويتحدث فى الدنيا ويقول الحكمة ويرفع القضايا على خصومه ويبدو وكأنه يعرف الدنيا كما يعرف أصابع يديه . وكان برغم تدينه الشديد لا يفتأ يعلن أنه قرر الزواج من بنت قاهرية عمرها ١٦ سنة حتى ترد إلى أعوامه

الثمانين شبابه الغارب ، وظل جدى طوال حياته يردد هذه الحكاية ولا يفعلها أبداً ، وقد فهمت فيما بعد أن هذا كان سيفاً مصلتا يهدد به جدتى ويلزمها طاعته . وعند ما كان العصر يجيء كان جدى يصحبنى معه إلى أحد مقاهى العتبة لنجلس معاً وسط كبار القوم ونشرب السحلب ونمد أقدامنا للبوهيجى ليعيد تلميع الأحذية. وكان جدى يشتهر فى هذا المقهى شهرة عظيمة ، فالناس يهشون له بمجرد رؤيته ، وعلية القوم يجلسون معه فى المقهى ويلاطفوننى تملقاً لجدى ويقولون له إننى أشبهه تمام الشبه فسبحان من يخلق الفرع كالأصل وأنضر .

ولم أر جدى حزيناً مرة واحدة ، لم أسمعه يشكو أبداً .

حتى القضايا التى يخسرها كان يعود بعدها وقد حمل مزيداً من السمك واللحم فيطلب من أمى أن تعد لنا غذاء مضاعفاً فقد خسر القضية ، ويضع الرجل همه فى الأكل وينسى كل شيء . . . بعدها يعود البشر إلى وجهه ويعود إلى السخرية من الحياة ويفتح بالضحك العظيم صدره وقلبه . وكانت أمى تحسده على هذه القدرة على تناسى الهموم . . . وكان أبى يعرف من إقبال جدى على الطعام أنه قد خسر قضية . . . ويسأله عن نتيجة القضية فيعرف أنه خسرها فيربد وجهه ويحزن ، ونعرف على المائدة أن جدى قدخسر قضيته فتنسد أنفسناعن الأكل ونحزن ، وينقلب البيت إلى مظاهرة صامتة من الحزن ، وهو وحده صاحب الشأن يغرق فى الضحك ويبدو كأن الأمر لا يعنيه . . . وكانت أمى تنظر إليه وتكز على أسنانها وتقول :

— الراجل ده حيعيش ١٠٠ سنه . ده عمره ما زعل .

ذلك كان تعليق المدينة على القرية .

وكان جدى يسمع هذه العبارة فيغرق فى الضحك وتنتشى أعطافه ويحتضننى سائلا :

— تروح السيما النهارده . . ؟

وهكذا نذهب معاً إلى السينما . وكان إخوتى يحقدون على لأن جدى يختصنى بحبه ، ولهذا كانوا يأخذون جانب أمى فى صراعها التقليدى معه ، وكنت آخذ جانب القرية . فكانت أمى تنتهز فرصة ارتكا بى أى خطأ تافه لتضربنى وهى تقول :

— العرق يمد لسابع جد . إنت طالع لئيم كده لمين ! .

كيف أتجاهل دعوة جدى وقد تحملت فى سبيله ما تحملت .

ترى كيف أصبح الرجل العجوز الذى كذب ظن الناس جميعاً وعاش حتى تعدى عمره مائة عام .

إلى القرية إذن . وليذهب العمل للجحيم . وفى الإجازة العارضة متسع للجميع .

* * *

الأحد ٢٨ مارس ١٩٦٥

الطريق إلى قريتنا يخترق قلب الدلتا ثم يعرج قليلا إلى اليمين حتى نغادر عاصمة المحافظة ونتجه نحو الحقول ، والأوتوبيس يمتلىء بالقفف والأسبتة وأصوات « الراديونات » التى يحملها الفلاحون والفئات الأخرى . وضعت سيدة بدينة تحت قدمى قفة ضخمة وانحشرت قدماى فرفعتهما قليلا وقلت أضعهما على القفة فصرخت المرأة .

— فيها عيش يا ضناى ما تدوسش عليها حرام .

وهكذا علقت قدمى فى الهواء . وفوق شبكة الأوتوبيس وضع رجل مجهول لفافة أغلب الظن أن فيها جبنة ضابحة لم تزل تحمل مياهها ، وكانت المياه تغافل الجبنة وتسقط فوق رأسى فى رذاذ خفيف ، وقد صرخت مرتين سائلا عن صاحب الجبنة لكن كل ركاب الأوتوبيس نظروا إلى ببراءة وأنكروا ملكيتهم للجبنة ، وفكرت فى إلقاء اللفافة كلها من شباك الأوتوبيس لكننى ترددت مستجيباً لوازع دينى ، فهذه فى نهاية الأمر

نعمة . . . وعلى امتداد النظر تبدو الحقول الخضراء أرق تعبير عن استواء الطبيعة المصرية ، ورائحة الريف تصافح أنفى فأحس بمشاعر متضاربة : وأفكر فى قصة حبى وأتساءل عن السر الذى يجعلنى خائباً كل هذه الخيبة مع النساء ، ، وسطع داخلى فيما يشبه الإلهام أن زوجتى هى المسئولة عن ذلك ، فقد ألقت فى حياتى ظلاً من الرعب الذى يجعل كل مغامراتى مع النساء تقع فى خيالى ، أو يقع الجزء المهم منها داخل عقلى المضطرب . هذا إحساس يجب أن أتخلى عنه وأطرده . . . يجب أن تكون لى مغامرات وقصص حب ، لقد تحولت حياتى بفضل زوجتى إلى صحراء قاحلة تخلو من الحب . السيارة تكاد تدهس خروفاً يجرى وسط الطريق ، حمداً لله ؛ لقد أنقذ الخروف . ثم إن زوجتى لا تفهمنى ، صحيح أن هذه العبارة قد ابتذلت وأصبحت مثل حجج الاستعمار فى المحافظة على توازن المناطق ، لكنها رغم ذلك تستخدم بسبب وبلا سبب . . . وها أنذا ألجأ لاستخدامها بلا وعى . توقفت السيارة عند قريتنا فهبطت. صافحتنى رائحة التبن المبلل والحقول الخضراء ، وانساب من نفسى الحنين نحو جدى وتذكرت حبه العظيم ووصيته بأن أنتمى إلى القرية وألا أنساها فى زحمة المدينة كما فعل أبى وإخوتى ، وشققت طريقى إلى بيتنا الذى أدين له فى نهاية الأمر بالوجود . ورفعت الأبقار نظرها عن البرسيم الذى تأكله وألقت مع نظرتها بالسلام ثم عادت تدس أنفها فى الخضرة ، وتأملنى كلب أصفر فهز ذيله برغم أننى لم أتشرف بمعرفته قبل ذلك ، وملأتنى الرغبة فى أن أربت بيدى على رؤوس الأبقار والكلاب لكننى قاومت هذه الرغبة وأسرعت فى المسير نحو البيت حتى شارفت الحديقة التى تقع أمامه . ما أحلى العنب والتين الذى كنت آكله من هذه الحديقة أيام كان جدى هو الذى يشرف عليها ويرعاها بنفسه ... لم يعد فى الحديقة غير شجرتين من أشجار السنط وعشب كان أخضر ثم مات لونه ، ووسط الشمس على سجادة قديمة كان جدى يجلس منكمشاً على نفسه

وأمامه نصف كوب من الشاى . . . لم يكن معه أحد وسقط ظلى على الأرض أمامه فرفع رأسه وظلل عينيه بيده وتعرف على . أضاء وجهه وحاول أن ينهض . وهويت على يده أقبلها واحتضنت عوده النحيل وتأملت وجهه العجوز الذى يشبه جذوع الأشجار الهرمه ؛ وأحسست أن الرجل فقد الكثير من وزنه . وجلست إلى جواره على الأرض لكنه زعق معلناً مجيئى ، ولم تمض دقائق حتى كانت القرية كلها قد أحيطت علماً بزيارتى ؛ وصافحت مئات الوجوه التى راحت تتأملنى ، كما لو كنت حيواناً غريباً لم يصادفهم مثله ، وشدت على يدى مئات الأيدى الخشنة ، وتأملتنى العيون بوجوم ، فقدمت آلاف التفسيرات المتناقضة لغيابى عن القرية ؛ وانتهت مراسم الاستقبال وخلوت أخيراً بجدى .

* انت فين يا راجل تشوف جدك قبل ما يموت .

وأصدرت بفمى تمتمة تقول : « بعد الشر » . رفع يده ليسكتنى وعاد يقول :

* كلهم عايزينى أموت . أنا عارف ونفسى فى كده ، لكن أعمل إيه وما باليد حيله .

ودافعت عن حياته بعنف لكنه قال بهدوء :

* دول مش زيك . انت غيرهم . . . دلوقتى أنا بقيت عاله عليهم بعد ما كانوا كلهم عاله على ، أنادى حد منهم يعمل نفسه أطرش ، أزعق عليه يزعق فى — عايز إيه يا أخى ما تقوم تنام بقه .

كأنه بيقول لى ما تقوم تموت بقه ، انت لسه عايش تعمل إيه . معاهم حق . طب أنا عايش أعمل إيه . . . عنيه ضعفت من زمان ولا أسمع إلا لما يصرخوا فى ودانى ، وذاكرتى ادهورت ، وأصحابى الله يرحمهم كلهم ، والشيخوخة تقيله والحساب قرب ، والموت أهو زى النوم إنما اللى بعده . . .

وسكت الرجل ، ورسمت ملامح وجهه خوفاً يشبه خوف الأطفال فى الظلمة الحالكة . مات أصدقاؤك الذين كانوا يفهمونك فما أقسى الشيخوخة ! ولم تعد غير فم يأكل الطعام فما أعظم بؤس الذين يأكلون ولا يعملون! وعما قريب تقف أمام الله لتقديم الحساب عما فعلت فما أشد خوفك ممن لا تخفى عليه خافية . . . قال جدى فجأة :

— الحمد لله ع الإيمان ، لكن العمل إيه فى أيام الجهل .

لم أفهم نصف عبارته الأخيرة . . . سألته عما يقصده بأيام الجهل فقال إنه يعنى أيام الشباب ، وأدهشنى أنه يقصد النساء . وحاولت أن أستدرجه لأعرف مغامراته أيام الجهل أو أيام الشباب ، لكنه أطبق فمه وتظاهر بأنه اليوم قد سمع ما فيه الكفاية . وذهبت كل محاولاتى أدراج الرياح ، وأنشأ هو يتحدث فى موضوعات عجبت لاهتمامه بها ، فقد حكى قصة الفرخة التى تآمروا عليها وذبحوها رغم أنه كان يأكل ما تبيضه كل يوم . وعزز كلمته بالمثل الذى يقول إن بيضتها أحسن من ليلتها . . . وعاد لحديثه عن النساء فقال وهو يلتفت إلى فجأة .

— اتوصى بمراتك يا ابنى دول أهلها ناس طيبين .

وبحثت فى ذاكرتى عن السبب الذى يجعله يحكم بالطيبة على ناسها ، وتذكرت أنه زار حماتى فى بيتها مرة فأطلقوا يده عند الغداء وقدموا إليه فرخة كاملة وأقسموا جهد أيمانهم أنه لا بد أن يأكلها عن آخرها ، وتمنع جدى قليلا ثم انقض على الفرخة وأصدر حكمه بعدها بأن هؤلاء الناس من أطيب الناس أصلاً وأنقاهم معدناً وأكرمهم محتداً ، لقد قبلت الرشوة يا جدى فدعنا من وصيتك وحدثنا عن شبابك أو جهلك كما تسميه فأنا هذه الأيام أعيش جهلى العظيم وأحب.

الاثنين ٢٩ مارس ١٩٦٥

رفض جدى أن يتحدث تماماً عن مغامراته النسائية ونحن نجلس

أمام النار فى المساء ، واكتفى بالتحديق فى قوالح الذرة الجافة وهى تشتعل فى المدفأة النحاسية القديمة . وعبثاً حاولت أن أخرجه عن صمته ، كان وجهه يزداد تغضناً وانكماشاً كلما ألححت عليه فى السؤال ، وبدا لى أن الرجل يتحرك لكنه لا يحيا ألبتة ، كان يستخدم قواه الحية مثلما يستخدم الأطفال قواهم الحية . . . بلا هدف خارجي . . . ليس فى حياتهم هدف يسبب الحركة . . . الأطفال لم يبدأ بعد عملهم والشيوخ انتهى دورهم . . . والاثنان ليس لديهم لعبة سوى الجسد . وعند ما تصبح تصرفات الجسد غاية وليست وسيلة إلى شيء ، عند ما يصبح الجسد موظفاً من أجل الجسد عند ما يصبح تناول الطعام والحديث والنوم والبكاء والاشتغال بأمر ما . . . عند ما يصبح هذا كله بلا هدف تصبح الحياة شيئاً لا يطاق.. .ومثلما يضيق الناس من الأطفال بسبب نشاطهم الذى لا معنى له ، كذلك يسأمون من حركة الشيوخ التى لا معنى لها . . . إن جدى يتحدث لا ليقول شيئاً وإنما لأنه يريد أن يمرن عضلات رئتيه ولسانه ، وهو يبكى مثل طفل صغير لأنه فى حاجة إلى غسل عينيه . . . وهو يغضب ويصيح ويشتم لأنه لا يجد شيئاً يشغله أو يفعله ... وطوال النهار يجلس جدى فى حديقة الدار . . . صامتاً يتأمل أعواد القش أمامه . فيم يفكر . بم يحلم . الله وحده يعلم . . . أحياناً يحس أنه فى حاجة لسماع صوته للتأكد من أنه لم يمت بعد ، فيصرخ منادياً ابنته . . . فإذا جاءت لم يعرف لماذا كان يطلبها . أحياناً يحس أنه فى حاجة إلى القلق . . . فهو إنسان يحتاج مثل باقى الناس للقلق . . . ساعتها يسأل عن أخبار الحمار وأحوال البقرتين وطول عيدان القمح . . . ويجيبونه أى أجوبة ، ويغتاظ الرجل فهو يريد أن يعرف الحقيقة . . . لكنهم يحسون أنه أصبح أضعف من تحمل الحقيقة البسيطة .

حدث أن ولدت الجاموسة ، وباعت العائلة بغير علم الرجل الكبير هذا المولود ، وثار جدى حين نقل إليه أحد جواسيسه من الأطفال نبأ بيع العجل الصغير . . . وجدها فرصة لا تعوض لفرض وجوده والإحساس

بثقله . . . ووقف الرجل وسط البيت منحنياً على عصاه وراح يلعنهم جميعاً لأنهم يتصرفون فى ماله وهو حى ولا ينتظرون موته . . . وكان الرد عليه صمتاً طويلا ونظرات خاطفة وابتسامات مكتئبة مكتومة ، ودهشة تقول : فيم كل هذا الضجيج وما الذى يريده العجوز . . ؟ لقد أنهى مهمته فى العالم وأصبح باعثاً على الشفقة ؛ فلم لا يسكت ؟

وعند ما يثيره الصياح ويهد قواه يجلس فى الحديقة وهو يغمغم : إنها مؤامرة لقتلى ، إنهم جميعاً يتآمرون لقتلى . . . يعلم بإحساسه الداخلى أنه يبالغ قليلا لكنه يتمسك بأقواله . . . اللعنة على الضعف . . . ثم لا يلبث أحد أحفاده الذين لم يبلغوا عامهم الثانى أن يحبوا إليه ، ويمسك الصغير قبضة من القش فيقذف جده بها ، ويرد الجد عليه بابتسامة تعنى أنه مكتئب ولا يريد اليوم أن يلعب ، لكن إلحاح الطفل وابتساماته يخرجانه من اكتئابه وينزعانه إلى اللعب . . . ويلعبان معا . . . الجد الذى تعدى المئة والطفل ذو العامين ، ويبدو الاثنان منسجمين تماماً ، ولا تنقضى دقائق حتى يكون الجد وحفيده قد أغرقا فى الصياح المرح والضحك وراحا يحركان جسميهما هذه الحركة التى لا هدف من ورائها ؛ ويبلغ الخبر بقية الأطفال فيهرعون إلى الحديقة ، ويبدو الجد وحوله كومة الأطفال مثل ثمرة جافة من ثمرات البسلة التى تشققت عن حباتها الخضراء النضرة ، ولا أحد بعد أن يحصل على ثمار البسلة يبحث عن مصير الغلاف الأصفر .

وأشعلت له سيجارته . وحدق الرجل فى النار وهى تخمد والتفت هامساً يسأل وكأن الفكرة طرأت على باله للتو :

ـ الواحد لما يموت يحاسبوه على طول والا يستنوا عليه لما يبعث يوم القيامة ؟ .

كان جدى وهو يسألنى يحاذر أن يسمعه أحد ، وكان يكتم قلقاً كفت عيناه لضعفهما عن البوح به ، وكان واضحاً أن هذا الموضوع

لم يطرأ على ذهنه الآن فقط وإنما يشغل باله منذ أيام . لم أعرف كيف أجيبه ، أدهشني السؤال فقلت محاولا أن أداري جهل معلوماتي الدينية .

* في الغالب حيحاسبوه يوم القيامة . . .

وأطلق الرجل تنهيدة ارتياح فعدت أسأله :

* خايف من إيه يا جدى ؟

لم يقل الرجل شيئاً لكن صديقاً له حدثني في القرية عما يخيفه . طيش الشباب . كان جدك في شبابه شقياً يعرف كيف يثني العمة ويزحلقها إلى الوراء ويطوح على يده الجبة الشفيوت الفاخرة ويقتحم طريقه لقلب المرأة ببساطة ، وعلى أيام جدك يا ابني كان الخروف بجنيه ونصف ، والعشر بيضات بقرش . والمتعة والفن يقدمان في روض الفرج وعماد الدين ، وجدك يبيع القطن وينسرق وحده إلى القاهرة فيغيب ما شاء له الغياب ، ويبدو في القاهرة مرحاً يستشهد بالشعر في حديثه ويدندن بالغناء خلال سيره وينفق ما ينفقه ثم يعود إلى القرية نادماً مستغفراً يصلي فيطيل الصلاة ويدعو فيطيل الدعاء . . . ومضى العمر وأسلمته الطفولة إلى الشباب فالكهولة فالشيخوخة فالطفولة ، أتم الرجل دورته حول نفسه وأثبت أن بذور المتعة التي يلقيها الإنسان في شبابه هي نفسها ثمار الخوف التي يمضغها في كهولته وهو يقترب حثيثاً من خالقه . . .

* لا تخف يا جدى فأنت رجل طيب .

تجاهل الرجل كلمتي وأشار لكلب مقطوع الذنب كان قد تجرأ ودخل الغرفة وراء رائحة الخبز الذي نأكله في العشاء . . . صرخ جدى .

— الكلب ده بيعمل إيه هنا . . . امشي بره .

وانحنى على الأرض وقام بتمثيل أنه يمسك طوبة ورفع يده المضمومة ، فنظر الكلب إلى الخبز وإلى يده وقرر البقاء . . . وأحس جدى بالإهانة فها هو الكلب نفسه لم يعد يخشاه ، وطوح بيده في الهواء ممثلا أنه ألقى

الطوبة فتراجع الكلب خطوتين للوراء وظل ينقل نظراته بين وجه جدى ووجه الرغيف ، وكانت نظراته تخطف نفسها من وجه جدى لتموت على الخبز . . . يا جدى ألا تعلم أن خاطئاً كبيراً دخل الجنة فى كلب ظامئ سقاه . . . وذهبت قسوة الوجه على الفور . . . لانت ملامح الرجل العجوز ورمق الكلب بشىء يشبه الحب ومد يده بقطعة الخبز وقذفها له . . . والتقم الكلب قطعة الخبز من الهواء برشاقة ، ثم استدار وخرج من الغرفة وهو يهز فرحاً ما بقى من ذيله .

وظلت نفسية جدى طيبة طوال السهرة ، وهى سهرة قضاها نائماً بيننا . . . وغداً أعود إلى القاهرة فقد انتهت الإجازة العارضة ، فما أسمج العودة !

* * *

الأحد ١١ أبريل ١٩٦٥

فى حياة كل زوجة مصرية وقف مجهول أو جد ثرى أو ثروة ضائعة يجرى البحث عنها .

لا بد من توافر أحد هذه العناصر ، وفى اللحظات التى يفتح فيها المحبس بين الحقيقة والخيال ينطلق الحديث وتختلط الحقائق بالأمانى حتى يكاد المرء لا يفرق بينهما .

ومنذ يومين ذكرت لى زوجتى شيئاً عن وقف حدثتها عنه أمها . . . وأخبرتها أن الأوقاف قد ألغيت من زمن ، لكنها قالت إنه شىء يشبه الوقف ، ولم أستمع لحديث زوجتى .

تذكرت أمى على الفور ، وتذكرت وقفاً مماثلا كانت عائلتنا تجرى وراءه ، وكانوا يقولون إن الوقف كله يساوى عشرة ملايين من الجنيهات ، سننال منها خمسة ملايين دفعة واحدة ، بعد الضرائب والذى منه . . . هذا ما قيل ونحن أطفال فى الثانية من عمرنا ، وكبرنا ووصل عمرنا إلى

الخامسة عشرة ، وكنا نسمع كل عام أن المحاولات مستمرة والقضايا تتلاحق والمحاكم مهتمة بالموضوع والوقف آت فى الطريق ؛ وكبرنا ووصلنا الثلاثين ونحن نسمع عن الوقف الذى لا بد أنه فى الطريق ، وها نحن نكبر أكثر ونتزوج فإذا بنا نلتقى بأسطورة الوقف الذى تتحدث عنه الزوجة ، وهو وقف ورثته عن أمها مثلما ورثت الوقف عن أمى ، وهكذا ينتقل الوقف بالميراث جيلا بعد جيل . ويكبر الحلم يوماً بعد يوم حتى يبتلع الحقيقة ولا يبقى من الوقف المزعوم غير الكلمات الحالمة عنه .

وينشأ الوقف غالباً من ورقة طويلة يبلغ طولها متراً أو أكثر هى حجة الوقف ، وتوجد هذه الورقة فى أمتعة الجد السابع أو الخامس أو الثالث بعد أن يموت . وتلقيها العائلة جانباً خلال فترة الحداد ثم تبدأ فى فحص هذه الورقة فى ساعة من ساعات الصفاء . . . وتكتشف أن فيها كتابة تصلهم بأحد أقرباء بيت كان يسكن بجوار النبى صلى الله عليه وسلم . وتمتلئ العائلة بالكبرياء فجأة فهم أقرباء للنبى ، كما يكتشفون فى الورقة الطويلة كلاماً عن قطعة أرض هائلة إشتراها المرحوم بثلاثة جنيهات ونصف وحدد مكانها بأنها تقع وراء بركة الأزبكية ، ويبدأ بحث العائلة عن بركة الأزبكية . ويكتشفون وجودها أيام الأمير « أزبك » أتابك الجيش فى دولة السلطان قايتباى . ثم ردمت بعد ذلك ومكانها الآن حديقة الأزبكية عظيم جداً . ويتطوع أكثر أفراد العائلة مشاغبة ويقوم برسم خريطة تقريبية من الذاكرة لمكان قطعة الأرض . ويكتشف أن الأرض هى نصف شارع ٢٦ يوليو مع شارع عبد الخالق ثروت . هذه الأرض كلها ملكنا . عظيم جدا . لم يبق إلا استخلاص هذه الأرض من براثن الحكومة ويتطوع فرد آخر ليسأل محامياً فى الموضوع . . . ويكون هذا المحامى مريضاً بألم موضعى فى جيبه . ولأن الكساد الشديد مؤلم فلذلك يعرض المحامى فهمه القانونى وحنكته القضائية تحت أنظار العائلة ، بعد تحذيره لهم أن هذا الموضوع سيكلفهم نقوداً قد تكون طائلة ، وتختاره العائلة

ليعود إليها بالحق المسلوب ، ويمد المحامى يده ويقبض مقدم الأتعاب ، وعند ما تشعر العائلة أنها قد دفعت مالاً فى القضية يزداد إحساسها بأنها تقترب من هدفها فى قبض نقود الوقف نفسه . . . وعلى قدر وفرة النقود التى تنفقها العائلات لاستخلاص أوقافها السحيقة . . . تكون معزة الوقف وغلاوته . وتسمى الموضوع : « مسألة الوقف » . . . برغم أن الحكاية لا علاقة لها بالوقف . . . بعد ذلك تقوم العائلة بعمليات حسابية سريعة لتقدير ثمن الوقف زمان وتقدير ثمنه الآن . كان ثمنه ثلاثة جنيهات ونصف جنيه أيام الجنيه الجبس ، ثمنه الآن ملايين الجنيهات . نصف شارع ٢٦ يوليو وشارع عبد الخالق ثروت . . . شارع ونصف شارع . كم يساوى الآن . مليوناً . . . مليونين . . . عشرة ملايين لا أقل من عشرة ملايين . وترفع القضية . وتكتشف العائلة لدهشتها الشديدة أن هناك حجة أخرى مطابقة لحجتها يطالب أصحابها بنفس هذه الأرض . . . مع فارق بسيط ، إن هذه العائلة تطالب بنصف شارع عبد الخالق ثروت وكل شارع ٢٦ يوليو . . . وبدلا من الالتفات للحكومة ، يلتفت المطالبون لبعضهم . وتبدأ القضايا وتستمر بالثمانين عاما منظورة أمام المحاكم والتأجيل لا ينتهى لتقديم المستندات .

وتترك العائلة المطالبة بالوقف لأحد أبنائها مهمة متابعة أخبار الوقف وتنصرف بنفسها أى العائلة إلى توزيع النقود التى لم تأت بعد، عفاف، ستأخذ عشرين ألفاً ، وسهير ستنال خمسين ألفاً وحدها ، ومحمود له مليون كامل . وتنطلق الأحلام متابعة آخر تطورات السيارات فى العالم لانتقاء النموذج الذى سيشتريه هذا الطفل عند ما يقبض الوقف .

ويكبر الطفل ويتزوج وينجب أطفالا والوقف ما زال فى الطريق . وقد يحدث فى الجيل الأول المطالب بالوقف أن ترفض القضية أو يحكم فيها بأن هذه الأرض ليست ملكاً لهم، لكن المحامى رغبة منه فى استمرار قبض الأتعاب يقنعهم بوجود طريقة للاستئناف أو إعادة رفع القضية ،

أو تفعل ذلك (فى معظم الأحوال) بخيالها فحسب . . . وتستمر بعد ذلك فى أحلام اليقظة والشعور نحو نصف شارع فؤاد وشارع عبد الخالق ثروت بلون من الود والإعزاز الخاص : فهذان الشارعان إن لم يكونا ملكاً لنا الآن فقد كانا فى الزمن الغارب ملكاً للجد السادس عشر .

وعند ما انتهيت من دراستى وعدتنى أمى أنها ستشترى لى فى العام القادم سيارة بعد أن تقبض الوقف . ومرت عشر سنوات ، وتغير حديث أمى فهى تحدث ابنى الكبير عما ستشتريه له عند ما تصرف النقود من حقها فى ملكية الشارعين . وها هى زوجتى بعد حل الأوقاف تقول شيئاً عن الوقف فما أظرف الوقف وما أخف دم الجدود الذين يتوفون عن ميراث هو ورقة طولها متر وأكثر، ويشغلون بهذه الورقة بال أحفادهم وأبناء أحفادهم .

وانتهت زوجتى من حديثها عن ظروف الوقف ونشأته والمتاعب التى لقيتها العائلة فى سبيل قراءة الحجة أولا ، فقد كانت متهرئة تماماً واضطرت العائلة للاستعانة بخبير لإعادة لصقها ، كما توجه أقوى فرد فى العائلة من حيث النظر وقرأها، ثم بدأت الإجراءات اللازمة لاستخلاص العباسية كلها ، فقد كان هذا الحى الضخم ملكاً لواحد من الأجداد ، وكان هذا أيام الجنيه الجبس أيضاً ، وسررت سروراً شديداً لهذا التاريخ الذى يعيد نفسه ببلاهة ، قلت لزوجتى وأنا أحاول أن أسبغ على كلماتى صفة الأهمية : على فكرة مش حاجة كويسه أنكو تكونوا أغنيا ، زمان الثروات كانت بتتعمل بطريقة مريبة جداً، خذى مثلا حكاية عرابى ، الراجل اللى باع عرابى خد فدادين أد إيه ، وبقه يربى خيل ويوكل الحصنه بتاعته لوز وفزدق وبقت الفلاحين تحسد الخيل . . . أهو ده كان غنى يعنى . . . إنما غنى إزاى .

كنت أحاول خلال حديثى أن أصرفها عن التفكير الجاد فى الوقف

حتى لا تجن مثلما جن ناس لهذا السبب ، لكنها التفتت تسألنى بخشونة :

— انت قصدك إيه . . . إن واحد من جدودى خان عرابى ؟ . وأنكر أن ذلك قصدى وأحاول أن أبسط الموضوع بطريقة محايدة من وجهة نظر العقل قائلا : إن تعليق الأهمية على أمثال هذه الأمور يشبه تعليق القميص على سحابة مارة . . . سحابة تشبه الشماعة .

وتعود تسألنى وقد نسيت حكاية عرابى .

— يعنى أنا مجنونة ؟

وأقسم بكل المقدسات أن ذلك ما هو قصدى ولا نيتى ، وربما انتهت حكاية الوقف بمعركة ، وذلك ما يعود علينا من الأجداد الذين ماتوا من قرون ، وبدلا من تركنا فى حالنا تجىء سيرتهم بالنكد .

* * *

الأحد ١٨ أبريل ١٩٦٥

الحب سفينة والزواج سفينة . الحب سفينة يستقلها عاشقان للنزهة والزواج سفينة يقودها رجل وامرأة ، والحب يكتفى بالنزهة ويدع لقائد السفينة مهمة الكفاح مع الأمواج والرياح والعواصف ، والزواج عمله الأساسى هو مواجهة هذه العواصف ، والنزهة هى عمل العشاق ، والكفاح هو عمل الأزواج ، والحب حالة عقلية والزواج وضع اجتماعى ، الحب حالة عقلية يكتشف المرء فيها أنه يعطف على مخلوقات الله الضعيفة ويحب القطط ويود لو ربت على رؤوس النمل تشجيعاً له ، أما الزواج فوضع اجتماعى يجد المرء نفسه فيه داخلا فى علاقات نفسية ومادية مع أقارب الزوجة وصاحب العمارة والجزار والبقال والترزى وبائع اللبن . . . إلخ . وهو وضع اجتماعى يكون من الصعب فيه الابقاء على احترام النفس بغير توافر النقود . وإذا كان الحب يقول : « هات عنيك تسرح فى جنتهم عنيه »

فإن الزواج هو القائل : « هات خمسين قرش للبوتاجاز وريال للمكوجى وعشرة صاغ للزبال ». وذلك هو الفرق بين الحب والزواج فما أعظم الفرق وما أتعس الزواج . أحس بذلك . وأحس أحياناً أن الحب خدعة عظيمة . ويخيل إلى أن الحب مصيدة صنعتها الحياة لتضمن استمرار النسل . والحب بكل شاعريته وعذوبته ومعجزاته التى يهزم فيها المستحيل . . . الحب لا يستطيع أن ينجب لنا طفلا واحداً ، أما الزواج فرغم ثقل ظله وسماجته فهو وحده القدير على إنجاب الأطفال ومنح الدنيا مزيداً من العقليات الجديدة والأفكار . وهذا هو السر فى أن الحب ينهزم دائماً أمام الزواج ويتلاشى فيه ويصبح زواجاً . وعند ما تحلم فتاة بالحب وتلتقى بحبيبها يحلم الرجل خلال يقظته أن يحمل حبيبته بين ذراعيه ويجرى بها بين الجبال والحقول . أما الفتاة فتحلم بحجرة دافئة يجلس الحبيب فيها على كرسى وقد ازداد سمنة وتحول إلى زوج وتعلم كيف يردد لزوجته أنه يحبها . هذا هو الفرق بين الرجل والمرأة . . . الرجل ينزع إلى الرحيل فهو بذور تلقى فى الأرض وتحملها الرياح مسافات ، والمرأة نفسها أرض وليس لديها وقت للعب ؛ فهى تريد هذه البذور لصنع زهور وأشجار وثمار جديدة . . .

وأحياناً تستوقفنى زوجتى وأنا فى طريقى من حجرة الطعام لأغسل يدى . تستوقفنى لتسأل :

* يا ترى أنت بتحبنى زى زمان ؟ .

وأشيح بيدى كأنى أقول لها :

— وأكتر من زمان .

لكنها تسىء تفسير حركة يدى وتطالبنى بتقديم إيضاح :

وأتوقف لأقول لها إنى أحبها طبعاً ، ولولا هذا الحب لما فضلتها على كل النساء وتزوجتها ، وتشيح بيدها وتقطب وجهها وتقول بهدوء :

* عارفه كنت بتحبنى زمان . . . بسألك عن دلوقت . ؟

أسكت ولا أتكلم ساعتها فإننى لا أعرف كيف أجيب : إننى لا أشعر بالحب مع زوجتى ، بل أشعر شعوراً آخر . ولا أدرى كيف أفسر ذلك عند ما تغيب عنى أو يمر ظل حقيقى بيننا ، ساعتها أشعر أننى ضعت ولم أعد أساوى شيئاً . أننى لا أحب إصبعى الصغيرة ، ولا أشعر به ولا أتغزل فيه . ولا أقول الشعر من أجله : وعند ما يفكر مخلوق فى قطع إصبعى هذا ، عند ما يجرب ذلك أحد ويرى ما أفعله فسوف يتصور أننى أحب إصبعى حباً لا مزيد عليه . . .

وذلك هو الزواج .

وزوجتى تركت بيتنا وحملت معها الأولاد أمس . سافرت أمها إلى غزة ، وذهبت هى بصفتها كبرى البنات لتجلس مع شقيقاتها الصغيرات وترعاهن أثناء غياب الأم . وخلا البيت لى . وتحرك الجيش المكون من زوجتى وولديها والخادمة والبواب وكل واحد يحمل فى يديه شيئاً واتجهوا جميعاً إلى محطة الأوتوبيس ، وراقبتهم من النافذة وأنا أحس أننى خفيف إلى الدرجة التى يجب أن أمسك فيها النافذة حتى لا أطير من الفرح ، بعد أن ابتلع جوف الأوتوبيس هذا المنظر دخلت إلى البيت وأطلقت تنهيدة عميقة .

ما هذا . . . أيمكن أن يسكرنا مجرد استنشاق الهواء ؟

يا لغرابة الحرية !!

الصفحه الأولى من مذكرات أعزب

انتشر الخبر بسرعة الضوء ، أتحدث عن سفر زوجتى ، الضوء يقطع ١٨٦,٤٥١ ألف ميل فى الثانية ، لست أعرف لماذا يجرى الضوء بكل هذه السرعة ، كيف يجهل الضوء أن فى التأنى السلامة ، كيف يجهل هذا المثل العامى ، قطعاً لا يأكل الضوء كثيراً من الفول المدمس ولهذا يحتفظ بسرعته ونشاطه ، ليست أفكارى مركزة ، السبب هو النافذة التى انفتحت

فجأة على الحرية ، يالسحر الهواء وغرابته عند ما تكون حرًّا تخيل معى أنك حر ، زوجتك مثلا على سفر . نفرط فى الأحلام أكثر . فنقول إنك حر ولم تتزوج « بعد » ولم تنجب « قط » وليس عليك « ألبتة » رؤساء . تصورت ذلك . . . عظيم . . . تصور نفسك تسير فى الطريق وتتنفس . . . هيه . . . كيف حالك الآن . . . تنفس بعمق وبطء وراحة وامتنان ، طبعاً يا صديقى ، إن التنفس نعمة كبرى ويمكن أن يصير التنفس هواية ، وفى السجن لا يعرف السجناء أن الربيع قد جاء وأن البقر يغرز أرجله فى الأرض الرطبة بحنو ، وأن سيقان النبات تستطيل وتكبر ، أيضاً يجهلون أن صغار البط تتعلم كيف تقفز من الأرض فى محاولة يائسة لتعلم الطيران، فى السجن لا يرى الإنسان سوى جدران زنزانته وجدران أفكاره الأشد سواداً والأعمق رهبة ، وفى الحرية يستطيع الإنسان أن يستقبل كل دفقة من دفقات الهواء ويحس أن الأرض تدور . . .

تدور وتدور وتدور . . . معلقة يمسكها جلال الخالق سبحانه وتبارك وتعالى على الرؤية والحلول والجسد والشريك والصاحبة والولد . . . الأرض معلقة بيد الرحمة الخالقة وتدور ، هبات الهواء متدافعة منتظمة ، الكون كله يتنفس فى شهيق عميق يستغرق مثل الزفير العميق ملايين السنين الضوئية . الكون مخلوق حى مأنوس شديد الانتظام والجمال والعذوبة وهو يتجه لخالقه طائعاً وإن كان غير محمل بالأمانة . . . أنا أحمل الأمانة وأحمل حريتى وأسير فما أمتع ذلك وأعظمه .

ولقد سمعتهم يقولون — أيتها الحرية . . . كم من الجرائم ترتكب باسمك ، نريد أن نجرب هذه الجرائم أو على أقل تقدير ، نريد أن نفهم معنى العبارة ، حدث لى شىء غريب جداً فى الأيام الأولى لسفر زوجتى ، كنت أنسى أنها سافرت وأدعوها باسمها أو أزعق عليها طالباً شيئاً ، ولا يكاد صوتى يرن ، فى البيت ويجىء الصدى بالصمت حتى ينفجر

فى روحى مثل آلاف الصواريخ الملونة إحساس مفاجىء بأنها مسافرة ، وأقوم من مكانى فى نشاط الفراشة وأبدأ مرورى على الغرف ، وينتهى طوافى بالبيت فأتأكد أنها سافرت ولا يدهشنى أنها سافرت وإنما يدهشنى انتشار الخبر بهذه السرعة ، بسرعة الضوء بدأت وفود القبائل والمهنئين والمسرورين والمتشردين من الأصدقاء الأزواج والأصدقاء الذين ليسوا بأزواج . . . ووقفت على عرش الرجل الأعزب أستقبل طوفان الأصدقاء الذين حالت الزوجة بينى وبينهم كالستار الحديدى البتار . جاء أحمد ووصل سعيد وهل شهاب ومن بعده حطت رحال يوسف ثم شرف حسن ثم دق الشيمى الجرس وانساب عوّاد وفاروق وصبرى ومصطفى . واكتشفت فى اليوم الثانى أنى أجلس وسط عدد يتراوح بين تجمهر خمسة أشخاص ويصل أحياناً إلى العشرة . باختصار كان هناك تجمهر مستمر فى البيت .

ويبدأ الضحك خافتاً ثم يشتد ثم قويًّا ثم مروعاً ثم يبدأ فيضرب جدران البيت ويهرب إلى الخارج ، وأشترك فيه بفرح صبيانى كطفل خرج أبواه فانفجر يلهو ويمرح بغير حدود . واستخفنى المرح فرحت أرقب وجوه الأصدقاء بحب وأتصور كل كلمة تقال تحمل طوفاناً من السرور المصفى ، ثم لاحظت مع تقدم الوقت جرأة الأصدقاء .

فى البداية كانوا يتصرفون بنوع من المجاملة ، ثم تأكدوا أن البيت خال حقًّا فبدأ كل واحد فيهم يتصرف بحريته كما لو لم يكن فى بيته ، خلع البعض أحذيتهم . وانتحى اثنان بالشطرنج وجلس ثلاثة يتهامسون . ونهض الرابع ليغسل وجهه فاقترح الخامس أن يأخذ دشًّا ، ووقف اثنان فى المطبخ يجوسان فيه، وقال يوسف إنه جائع كعادته واقترح فاروق إحياء الليلة بالطعام وطالب شهاب بالقهوة السادة وقال أحدهم لم أنم بالأمس وسأمدد فى فراشك قليلا ، وانقدحت فى رأس الشيمى فكرة أن يعد لهم طعاما هو الأرز باللحم على طريقة المشايخ . وجاء اللحم وبدأت تنقية

الأرز وانتشرت الفوضى واتسعت مساحتها أكثر وأكثر ، وطوال الوقت كنت أرقب تصرفاتهم بسرور خفى وأعجب لشخصية زوجتى الحديدية التى استطاعت أن تصد هذه الغارة، ومثل غارات التتار أتى الأصدقاء على الطعام والشراب ونفد الشاى واحتضر البن وودع السكر وجاء دور البطيخ ، وبقدر حبى الشديد للبطيخ أكره الحركات البهلوانية التى يأتيها اللب الموجود داخله ، وانصرف اثنان لإحضار بطيخة ، وعاد كل واحد منهما يحمل بطيخة ، ثم شرف بعدهما صندوق من زجاجات البيرة ، وأضأنا نور البيت كله وأشعلنا الراديو وانزوت القطط تحت الفراش رعباً من أصوات التتار وراحت السيوف المغربية القصيرة تهوى فى قلب البطيخ فيتطاير صراخ اللب وينشق النسيج عن احمرار يحاكى غروب الشمس ساعة الأصيل . . . يا نيل . . . أنا واللى أحبه نشبهك فى صفاك . . . آك . . . آك . . . يا نيل . . . يا نيل . . .

وانتهت الأغنية فدعبس أحدهم فى الراديو حتى عثر على أغنية أم كلثوم الشهيرة «يا اللى حبك خلى كل الدنيا حب» كانت زجاجات البيرة قد انتقلت من فراشها الزجاجى إلى فراش أعظم تعقيداً فسمعناها تغنى يا اللى حبك خلى كل الدنيا حر . . . وبدأنا نضحك حتى وقع منا اثنان من الكراسى إلى الأرض فوجدا الأرض أكثر راحة فمددا فى مكانهما .

طوفان من الضحك . طوفان هائل يجرف كل شىء ، ضحك يستمر حتى مطلع الفجر وفوضى رائعة ، وداخل المرء هذا الإحساس باجتماع الشمل حول مأدبة السرور . . .

بيد أن السرور لا يدوم . . .

الصفحة الثانية من مذكرات أعزب

إن الزواج قيد يرد على الحرية والبهجة والسرور ، والعزوبة قيد يرد على النظام والحكمة والتعقل ، ولقد احترت فى الزواج مثلما احترت فى

الحرية، كنت أشكو من السجن فأصبحت أختنق من الحرية ، كنت أكره الستار الحديدى الذى أنشأته زوجتى فى السنة الثانية من الزواج فأصبحت آسفاً على تحطم القيد وسفر الزوجة، ونظرت حولى فى البيت فارتد نظرى مروعاً وقد آب من رحلته بالدوار ، كان البيت قد تطور خلال أسبوع واحد بحيث صرت لا أكاد أعرفه ، وكثيراً ما يحدث أن أعود فى المساء وأدس المفتاح فى ثقب الباب وأفتح الباب وأتوقف . . . يستحيل أن يكون هذا بيتاً ، إن حصاناً عجوزاً سوف يرفض الحياة وسط هذه الفوضى . لم تعد النظرة الأولى إلى الصالة تستطيع تمييز الصالة من حجرة النوم من حجرة الجلوس ، أحدث الأصدقاء تعديلات أساسية على البيت ولوثوا كل الأطباق والأكواب وملأوا المطبخ بما لم أعد قادراً على إحصائه حتى اضطررت إلى إغلاق باب المطبخ نهائياً والاستغناء عنه وافهامهم أنه قد صار منطقة محرمة تمتلىء بالألغام التى تتكون من علب الفول والبلوبيف والتونة والأوراق وزجاجات البيرة ولب البطيخ . وهبط التراب على الأسطح المستوية فى البيت، فإذا بمائدة الطعام والبوفيه والدلسوار والمقاعد والفراش والدواليب تراكمات من التراب السميك . وكنت أتسلى فى البداية بأن أكتب على التراب شعارات مشجعة مثل « يسقط المطر شتاء . . . يعيش الصرصور فى الأماكن القذرة» ، كنت أريد بهذه العبارات أن أعرف معدلات سقوط التراب وسرعتها فى البيت ، ولم أكن أعثر على هذه العبارات فى اليوم الثانى أو الثالث ، التراب يسقط بسرعة أكثر من السرعة التى كان يسقط بها أيام وجود زوجتى . وأعدت التجربة بكتابة عبارات تقول : «تسقط الحياة الزوجية ، تحيا الحرية والفوضى » وزادت سرعة التراب ولم تلبث الشعارات الجديدة وسط فراشها الترابى غير نصف يوم . . . وتفكرت فى كلام الجامعة ابن داود الملك فى أورشليم ، باطل الأباطيل قال الجامعة ، باطل الأباطيل الكل باطل ، وعدت أتصفح التوراة لعلى أعثر فيها على حل فلم أجد حلولا ، وإن وجدت كلمات مأثورة وكثيراً من الحكمة «وجهت

قلبي لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح ؛ لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم والذى يزيد علماً يزيد حزناً » .

حقّاً ، لقد ازددت علماً بالأصدقاء فزدت حزناً ؛ لقد تجرأ على الأصدقاء أكثر مما ينبغي ، وأحياناً كنت أحس والساعة تقترب من الثالثة صباحاً أن المولد القائم فى البيت قد زاد على حده؛ وأن النظام قد أفلت من يدى تماماً، ولم أعد قادراً على إسكات أحد أو إلزامه حدود المنطق : وهكذا كنت أنهض للنوم وأترك الضحكات تدوى فى بقية الغرف ، وعلى صبيحة كل يوم كنت أزداد ثراء فى التراب وفقراً فى النظام وأغلق حجرة أخرى بعد أن تصير طرق المواصلات داخلها غير ممكنة بسبب الفوضى ، لم تبق لى غير حجرة النوم والجلوس والصالة ، وأصابنى الدوار حين تصورت هذه الحجرات وهى تغلق هى الأخرى والعبدلله ينتقل إلى لوكاندة فى حى الحسين من اللوكاندات التى يبيت فيها المرء واقفاً الى جوار الجدار ويدفع قرش صاغ .

وصرت أرى أحلاماً مزعجة فى الليل إذ يتحرك فى الصالة شبح فيحدث ضجيجاً فأستيقظ من النوم فزعا وأصرخ بصوتى المرتعش فى أعماق الظلمة :

* مين هناك فى الصالة .

ـــ ماتخافش . . . أنا يوسف .

* بتعمل إيه يا يوسف .

ـــ لا أبداً قايم أشرب . . .

* انت ما روحتش ليه يا يوسف .

ـــ الدنيا وخرى يا راجل .

وأعاود النوم متفكراً فى هذا الصديق الغريب الذى دعا نفسه للمبيت معى بغير أن يستشيرنى ، وجاء إلى البيت واستقر فيه وراح يدعو أصدقاءه للعب الطاولة وشرب المثلجات . وأستغرق فى النوم وأنسى خلال النوم أنى أستضيف أحداً ، ثم أفاجأ بحركة أخرى فى الحمام فأنتفض مذعوراً منتصباً

فى الفراش وقلبي يدق : وأتصنت لهذه الأقدام الغريبة : وأظل جامداً فى الفراش مسمراً بالرعب محكوماً بالخوف ثم أتذكر ضيوفى الثقلاء فأتنهد وأعاود النوم . . . أحياناً كنت أفكر فى الثورة ، كنت أقول لنفسى أننى لو صرخت مثل طرزان صرخة مروعة فربما أفزعتهم ، لكننى أمنع من ذلك نفسى قائلا إنهم سيتصورون أننى قد جننت إذ لم أحتمل سفر زوجتى أسبوعين ، وكانت هذه الفكرة تعذبنى كثيراً . . . كان يخيل إلى طيلة الوقت أنهم يضعوننى فى امتحان قاس ويرقبون قوة احتمالى على الحياة بغير زوجة ، وكانوا يقولون لى إن أى شكوى من أى نوع ستكون اعترافاً بينى وبين نفسى بأننى قد هزمت وانهرت ، وسوف تعود زوجتى فى نهاية الأمر ويتركوننى هم ، فإذا عادت زوجتى ووجدت أمامها رجلا مهزوماً ومنهاراً فسيكون معنى ذلك أننى قد خسرت الحرب نهائياً بينى وبينها . . . ولهذا السبب كنت أحاول أن أقاوم وألتف بالصمت كيلا يقال إنه بدأ ينهار . وكثيراً ما يحدث أن أعود إلى البيت فى الظهيرة ولا أكاد آكل سندوتشات الفول التى أحضرتها معى وأتهيأ للقيلولة حتى يدق جرس الباب . حضرت عفاريت القيالة ، ويحضر اثنان ، أتركهما فى الصالة وأنام وأستيقظ ، لا أجد أصدقائى وأجد بدلهم وجوهاً جديدة ، ناس لم أرهم فى حياتى قط ، وجوه غريبة تماماً على ، من هؤلاء ، من يكونون ، ماذا يفعلون هنا فى الصالة ، وألقى عليهم التحية فيرد منهم من يرد ويحتقرنى الباقون ، استحى أن أقول لهم عرفونى بأنفسكم أيها السادة فهذا بيت زوج رصين وليس ميداناً عاماً ، أستحى أن أسألهم عن أنفسهم وعمن سمح لهم بهذه الحرية المطلقة إذ خلعوا أحذيتهم وراحوا يطقطقون أصابع أيديهم (وذلك شىء أكرهه كثيراً) . . . وأحاول أن أجاذبهم أطراف الحديث لكنهم لا يلقون بالاً إلى ، ويطفئون السجاير فى الأرض ويزبلون المكان ثم يتضح أنهم أصدقاء سعيد أو فاروق أو حسن .

وأقول لسعيد : يا سعيد الراجل صاحبك ده دمه تقيل خالص .

يقول : يا راجل حرام عليك ده ظريف جداً، بكره تعرفه كويس وتحبه خالص .

وأصمت ، ماذا أقول له . . . لقد تجرأ على كل الناس : حتى القطط تجرأت هى الأخرى على البيت وصارت تنام فى فراش زوجتى وتتمطع فى فراشى وتلعب الكرة بالشراب الذى أرتديه فإذا جاء الصباح قضيت نصف ساعة أبحث عن فردة الشراب الضائعة ثم أجدها أخيراً الى جوار فردة شراب مختلفة تحت كرسى فى الصالة .

وازداد هجوم التتار والمماليك ، وقررت أن أتصرف كفلاح يعيش فى عصر المماليك أو التتار ، ومثلما كان الفلاح المصرى التعس يتصرف مع المحتسب الذى جاء يطلب الضرائب بأمر المماليك فيهجر الفلاحون قراهم ويأخذون عيالهم ويطفشون فكذلك قررت أن أهجر البيت . . . لكن إلى أين . . . هذه هى المشكلة التى لم يصادفها هاملت .

الصفحه الثالثة من مذكرات أعزب

الساعة الثالثة تماماً . .

يستحيل أن يكون هاملت قد استشعر ما أحسه الآن . . . لو حدث له ذلك لما كتبت من أجله مسرحية . إن مسرحية هاملت فى نهاية الأمر حادث بوليسى . أمير الدانمرك يعود ليجد والده قتيلا وأمه قد تزوجت عمه. ارتكبت جريمة القتل وبدأ المحقق هاملت بحثه عن الحقيقة . لو وقع الحادث فى عصرنا ولم يجد شكسبيرا يكتبه لنشر كذلك فى الصحف :

« تهدم بيت أمير الدانمرك بعد أن اكتشف هاملت أن عمه قتل والده وتزوج أمه ، توجه وكيل النيابة إلى منزل المدعو هاملت حيث اعترف الأخير بكل شىء وكان يتحدث بالشعر الإنجليزى عن أشياء كثيرة لم يفهمها المحقق ورجح أنه يهذى . وبالعرض على الطبيب الشرعى تبين أنه يقاسى من حالة نفسية تجعله غير مسئول عن أعماله ».

أؤمن مع يونسكو أن كل المسرحيات التى كتبت قبل مسرح الطليعة هى مسرحيات بوليسية . أؤمن كذلك أن زعيم شعراء الشعر العربى ابا الطيب المتنبي لو بعث حياً وقرأ الصحف فسوف يقف مذهولا أمام هذا الخبر البسيط .

« أطلق خفير شونة بنك التسليف عياراً نارياً على شبح كان يتسور جدران الشونة فأرداه قتيلا » .

قطعاً لن يفهم المتنبي كلمة « خفير » ، وسيتدلى فكه أمام حكاية شونة بنك التسليف ، أيضاً ستحيره حكاية العيار النارى . . . وقطعاً سيحس أنه يقرأ لغة غريبة عليه .

الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة . .

الشمس عمامة من نار يرتديها الخلق فوق رؤوسهم ويسيرون. لا ريب أن الجحيم نجمة من النجوم ، الجحيم يطل من السماء أثناء النهار فلا يراه أحد ولا يخافه أحد، وحين يجىء الليل ويتألق ضوء الانفجار النووى فى النجوم ينسج الشعراء بكل البلاهة خيوط الكلمات . اخترت بقعة ظليلة تحت تندة محل القمصان ووقفت . . . قميص جيمس بوند ، أفضل قميص أرسين لوبين ، كان هو المشهور على عصرنا ، لست أعرف أين أذهب . الكآبة داخلى رقدت على البيض ففقس وخرجت كتاكيت الحزن الرمادية وراحت تتواثب داخل نفسى وتصىء . روحى صحراء عظيمة تخلو من قطرة حب واحدة ، ليست هنالك واحة قريبة ، ثمة سراب وقد رأيت الفيلم مرتين ويستحيل أن أشرب المقلب مرة ثالثة ، السبب هو الحر . منذ ساعة واحدة. متأسف . السبب هو الحر والفول . منذ ساعة واحدة لم أكن هكذا . كنت سليماً ثم جاء طبق الفول وأفسد الموقف . خرجت من عملى منذ ساعة أتمشى فى الشوارع . قررت ألا أعود إلى البيت . السبب هو الأصدقاء والتراب .

إن المضايقات التى تقع لإنسان القرن العشرين أغزب كثيراً مما وقع لهاملت.

ماذا لو كتبت رواية عن الأصدقاء والتراب، تصورت الرواية وهي تبدأ برجل يعيش في مدينة تهب عليها سافيات الرمال. لا داعي للرواية والأفضل أن أكتب بحثاً يمتلىء بالكلمات الكبيرة مثل «لا سيما . . . بيد أن . . . إذ ربما . لعل هل . . على أنه إذا كان . . وحيث إنه إذا لم يكن ولربما قيل فسوف نقول » . اكتشفت سخافتي فوقعت الفكرة من رأسي إلى الأرض بغير ضجة وذابت وسط أسفلت الطريق .

صفرت الى جوارى عجلات السيارة فقفزت صارخاً إلى الوراء لاعناً السائق والحر . أخرج السائق رأسه من السيارة وتمتم بكلمات فصرخت فيه : أنت امرأة ، وتحديته أن يوقف سيارته ويخرج لي منها إن كان رجلا . اهتاج السائق وغلى الدم في عروقه لكن رتل السيارات وراءه كان يدفعه في ظهره بالكلاكسات فمضى وهو يغلي . ضحكت بسرور . . . ما الذي يغضب الرجال حين يدعوهم أحد بالنساء . لماذا يتصور الرجل الشرقي أنه أرقى من المرأة . . . لماذا يعتقد أن كلمة المرأة سباب . عقلية متخلفة وليست المرأة بهذا السوء الذي يتصوره الرجال . المرأة شيء هام جداً مثل سجاير الكليوبترا . . . وربما كانت أهم من سجاير الكليوبترا .

الساعة الثالثة والثلث . .

لن أعود إلى البيت مهما يحدث . إن عودتي إلى البيت معناها استسلامي النهائي لسماجة الأصدقاء وكرم الضيافة العربي . لست عربيا ، سأعتبر نفسي ابتداء من اللحظة من قدماء المصريين ، وهم أناس كانوا مقتصرين في حالهم ولم يكونوا كرماء إلا في الفنون. ينبغي أن أتسلى قليلا بالسير في شوارع القاهرة شارع ٢٦ يوليو يبدو في الظهيرة مثل حلة يغلي زيتها على النار ، تذكرت مأساة الغداء ، كيف انعطفت في شارع جانبي مصادفاً محلا للفول فدخلت . أحياناً يريد المرء أن يفعل شيئاً لكنه يفعل شيئاً آخر . ولقد صرخ اليوت يقول الحقيقة يوماً فقال : «بين الرغبة والفعل يسقط الظل»

ولقد كانت الرغبة بيضاً بالبسطرمة . . . ثم سقط ظل النقود فى جيبى وجاء الفعل طبقاً من الفول . ولقد كان طبق الفول خفيفاً والرجل يحمله . كان الرجل يحمله بيد واحدة فقط ، أقسم على ذلك ، وباليد الثانية كان يحمل صينية المياه لإطفاء الحريق ، وحين تناولت منه طبق الفول لم يكن ثقيلا فما السر فى ثقله العظيم على المعدة ، فى احساس قوى بأننى أحمل داخل معدتى حجارة الهرم الأكبر ، فما أعظم إسراف قدماء المصريين ورغبتهم فى بناء المقابر . لماذا أكلت . . . لماذا تسممت .

قال إليوت . . .

« ما الإنسان . . .

إذا كانت بضاعته الرئيسية وسوق عصره .

ليستا إلا الأكل والنوم . . . مجرد بهيمة ليس إلا » .

الساعة الثالثة والنصف . .

ليس هناك غير الشمس والأسفلت وعادم السيارات والطريق والوحدة. قلت ادخل مقهى البن البرازيلى واطلب شيئاً فربما عثرت على وجه صديق . لم أجد غير وجه فنجان القهوة ورجل هناك يشرب الشاى . ويخيل إلى أننى أعرفه فأبتسم فى وجهه لكنه يتجاهل ابتسامتى ويدير رأسه . لعلى أخطأت الشبه . ورحت أفكر فى بلاهة الحواجز التى يصطنعها الآدميون ، إنحدرنا من بطن امرأة واحدة ، وظهر رجل واحد ، سيدنا آدم عليه السلام ومدام آدم . نحن إذن جميعاً إخوة . . . لكننا ننسى هذه الحقيقة ولا نذكر غير قطرات الدم التى سالت بين قابيل وهابيل .

ويصرخ هاملت فى أوفيليا :

هل أنت عفيفه . . .

إنه يعلم أن الجمال أقوى من العفة . . . والوحدة أعظم من الرفقة ،

والجمال يلد العبادة والوحدة تلد العبقرية والزواج يلد عيالا وديوناً ومسئوليات وبلاوى زرقاء وخضراء وصفراء .

— كلنا أوغاد وأنذال . . . لم يزل هاملت يتكلم . . .

— فلنمنع الزواج . . .

يا صديقى هاملت . . . أنت رجل ساذج . . . عبقرى لكنك شديد السذاجة . إن منع الزواج أمر مستحيل . . . إننى زوج كان يعتقد أن الزواج سجن مؤبد، فلما خرج السجان يوماً وفتح الباب وألقى المفتاح إلى السجين ومضى ... أجهش السجين بالبكاء وراح يعض جدران سجنه صارخاً مطالباً بعودة السجان .

الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة . .

لم أزل أسير فى شوارع القاهرة بغير ما هدف . . . السير بغير هدف يشبه التدخين والمرء مصاب بالأنفلونزا، شيء لا معنى له ... وفى حياتى آلاف الأشياء التى تفتقر إلى المعنى ، وينبغى أن أغلق نفسى فى الفترة القادمة لأقوم ببعض الإصلاحات . . . يجب أن أغلق حواسى وعينى وأتحول إلى سينما مغلقة للتحسينات ، إن حياتى حتى اليوم تشبه الفيلم العربى أو الأمريكى ، شيء ردىء وممل ومتكرر. لم تصل الموجة الجديدة إلى حياتى بعد . . . لا أنكر أننى أحببت أكثر من حب عظيم ، لكن نهايات قصص الحب كانت غريبة ومضحكة . . . كانت مأساة نعم لكنها كانت من النوع المضحك ... كنت كلما شعرت بالحب نحو فتاة تزوجت غيرى ، طوال عمرى لم أحب فتاة إلا لأكتشف أن حبى كان يحمل إليها السعد فإذا بها تتزوج رجلا غيرى ، ولقد احترت فى هذه الظاهرة . . . زمان . . . قبل أن تولد الشعيرات البيضاء فى رأسى، كنت أحلم بحياة تمتلىء برياح البحر وأنفاس العالم الشاسع الفسيح ، ثم إذا بى

أدق بالمسامير فوق مكتب قديم فى مصلحة حكومية ، وكنت أحلم فى سن السادسة عشرة بأن أقوم بهدم الكون لإعادة ترتيبه بشكل جديد ومتناسق : فإذا أنا لا أستطيع أن أرتب درج مكتبى ، وأؤجل هذه العملية منذ ست سنوات إلى الغد . . . وضغط طبق الفول على معدتى فكدت أصرخ : والساعة الخامسة والدقيقة الثالثة ، ولم تزل أمامى ساعة لا أعرف كيف أمضيها ولا أين أذهب بنفسى فيها . . .

وجلست وقدماى تنشران فوق أقرب مقهى صادفته . . . طلبت كوباً من الشاى وقلت لنفسى سيردع الشاى قوة الفول ، واصطرع الشاى والفول وهزم الشاى شر هزيمة . وعادت الآلام تمزقنى ، وفكرت فى الانتحار . . . طلبت من الرجل كوباً آخر من الشاى ورحت أتأمل الناس . . . بعد دقائق من جلوسى فى المقهى لاحظت أن كل الجالسين لاعمل لهم سوى تأمل الناس ، صنف معين من الناس هو الجنس الآخر ، إن المرأة المصرية لم تحظ حتى الآن بدراسة كاملة ، إنها تختلف عن أى امرأة أخرى فى العالم ، أتحدث من الناحية الفنية عن الكتلة والاهتزاز . . . معظم الكتل من الحجم الكبير وثمة اهتزاز يشبه اهتزاز طبق من المهلبية التى لم تنضج تماماً . ما أغرب ذلك . . . ترى ما هو السر ؟ .

أغلب الظن أن المرأة المصرية لم تتخلص بعد من إحساسها العميق بأن السمنة مطلوبة ، ومنذ عشرين عاماً فقط كانت المفتقة والحبشتق ومربة خرز البقر هى أكثر الأشياء التى يعلن عنها . . . وكانوا يرسمون سيدة فى حجم الفيل ويقولون : « لكى تزدادى امتلاء وسمنة . . . تناولى على الريق صينية مفتقة صنع الحاج معلوف الشبكشى » . . .

وتحرك الفول فى معدتى . . . يبدو أننى ابتلعته صاحياً . . . يبدو أن الرجل لم يذبحه جيداً . . . أعتقد أن تفكيرى غير ملهم والسبب هو الفول . . منذ ساعتين ونصف ودقيقة لم تلمع فى ذهنى فكرة عبقرية واحدة . . .

ثمة انطفاء غريب ، وثمة هذا الحنين الذليل نحو طعام الزوجة ، وهو طعام

كنت أحار فى تفسيره ورده إلى أصوله العلمية . . . لكنه رغم كل شىء لم يكن حادا ونافذاً ومروعاً كالفول . . .

أين أنت يا زوجتى؟ ! . . إننى أحتضر فما أغرب الحياة ! كان حلمى أن أموت فى أرض قتال فى معركة عظيمة . . . وها أنذا أموت فى المقهى كما يموت البعير .

* * *

الصفحة الرابعة من مذكرات أعزب :

وصل الدائن فلا حول ولا قوة إلا بالله . . . هذا معناه أن مشاكلى تتفاقم بشكل يدعو إلى الحيرة ، والفقمة نوع من أنواع السمك السام . والسمك مخلوق غريب لا يدركه الغرق إلا خارج المياه ، والإنسان هو المخلوق الذى يستيقظ كل يوم فى الصباح فيشرب كوباً من الشاى ويدخن سيجارته ويصدر خلال ذلك أصواتاً تقلق النائمين معه وتشعرهم بالفرح لأن صاحبنا قد اكتشف بعد يقظته أنه لم يزل حيا ولم يمت بالأمس ... واليوم أستيقظ من النوم فلا أجد داخلى هذا الفرح ، ها أنذا أفتش فى رأسى عن أسباب منطقية للحزن فلا أجد . يستحيل أن تكون الديون والمشاكل هى السبب ، إننى مدين قليلا ولكننى أمارس تجاه الدائنين شعوراً بالعظمة النفسية التى لا تسمح لهم بطلب ديونهم إلا عند ما أسددها بنفسى ، إننى أكشر فى وجوههم ويمتلىء وجهى بإحساس من الضجر والكبرياء والسأم المحنق فأبدو مثل رجل يستعرض فى ذهنه مشكلة كونية هامة وليس لديه وقت يضيعه فى مناقشة موضوع الجنيهات الخمسة أو الخمسة عشر . هذا موضوع مؤسف يا صديقى . . . لقد اقترضت منك ، أعترف بذلك ، ولكنك أقرضتنى نقودك لأسباب تعلو على حاجتى إلى النقود ، أنت وحيد وتريد أن تحكى مشاكلك لمخلوق آخر ، أنت آدمى فى نهاية الأمر وحاجتك إلى من يستمع إليك أشد من حاجتك لهذه الأوراق الملونة ، وأنا مندهش

فى الحقيقة من اختراع النقود ، إنها تطبع بكميات كثيرة ، لكنها عند ما تصل إلى يدى تتبخر مثل عفريت نقرأ عليه آية من القرآن . . . هل تؤمن بالعفاريت ، أنا شخصيا لا أؤمن بإمكان رؤيتنا لهم وإن كنت أؤمن بوجودهم ، المشكلة أننا لا نستطيع الاتصال بهم ، انظر إلى القطط ، إنها تقرأ شيئاً قبل أن تنام ، لقد حاولت بيأس أن أعرف ماذا تقول فلم أعرف ، إذا كانت قططى التى أحبها وأطعمها وأدللها لا تقول لى ماذا تقرأ ولا يمكن الاتصال بها ، فكيف يمكن الاتصال بالعفاريت إذن ، طبعاً لا أصدق كل ما يقال عنهم ، يا صديقى إن الاتصال بالبشر أصبح فى حكم المستحيل فكيف يمكن الاتصال بالعفاريت ، كل إنسان قد أضحى جزيرة له مشاكله وله أحلامه وحاجاته. إن جرس التليفون لا يدق لأنه ليس هناك تليفون ، أرأيت المأساة ليس هناك أحد يسأل عنك ، إنك موجود تماماً مثل العفاريت ، وفى هذه اللحظة هناك رجل يقرأ صحيفة وامرأة ترضع طفلها وطفل يلعب بطائرته وقطار ينقلب على جنبه وطائرة تغوص فى البحر وشلال ينفجر بالمياه ويضرب السمك فى الصخور فتتحطم، مات السمك ولن يبكيه أحد ، أرأيت ، أن أحداً لا يشعر بوجودك برغم أنك تتنفس .

إن هوايتى قد صارت هى التنفس . . .

وكل إنسان يتنفس وليس هذا دليلاً على شىء ، ينبغى أن أبدأ الصوم الكبير وفاء لنذر قديم ، إن الصوم أفضل من الشبع والغنى أكثر وجاهة من الفقر لكن هذا كله لا يهم . . . صدقنى أنه لا يهم ، سوف تجوع فى المساء لو أكلت فى الصباح ، يجب أن تسأم إذن من الموضوع كله وتقرر التأمل ، تأمل حياتك الداخلية ودعك من التفكير فى النقود التى أقرضتها لى . . . لا تقل إن خمسة عشر جنيهاً هى السبب فى أحزانك!، لست مسئولا عن أحزانك ولست مخلوقاً لحل مشاكلك . . . إن لى مشاكل أنا الآخر . . . لاحظ أن الكل باطل وقبض الريح ، هذه

هى كلمات سيدنا سليمان عليه السلام ، أبداً ، أنت مخطىء . إن ثراءه العظيم ليس له دخل فى إعجابى به . . . اعلم أنه كان وسيظل أغنى رجل على الأرض ، إنه يسأل ربه يوماً أن يهبه ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وهو يوهب هذا الملك وتحمل له السفن ذهباً من كل أنحاء الدنيا . هل تظن سليمان كان سعيداً بهذا الذهب ، أؤكد لك أن هذا لم يهزه قط . أعترف معك بأنه صنع كرسياً من الذهب والعاج وحوله ستة أسود يصعد إليها بست درجات وهذا كله من الذهب والعاج . . . هيه . هل لديك كرسى مثل هذا فى بيتك ، أبداً إن كراسيك الخيزران طبعاً لا تساوى شعرة ساقطة من ذقن واحد من دستة الأسود التى كانت حول كرسى الملك سليمان . أين ذهب كرسى سليمان ، هيه ... لا تعرف لقد ذهب وضاع وفقد وتبدد . . . عاد إلى التراب . . . كل شىء صائر إلى التراب بعد أن ينهى دورته . تقول أن سيدنا سليمان لم يكن يقترض ، طبعاً لم يكن يقترض ، كان خيره على الدنيا كلها . لكنك تخطىء لو تصورت أن قيمته تنبعث من غناه ، فالمال عارية يستردها الخالق وليس للإنسان عليها سوى حق الانتفاع ، وسيدنا سليمان كان غنياً لكن قيمته تكمن فى نبوته العظيمة وفى هذه الرحمة التى أزاحت من أمامه السدود والحدود فإذا به يسمع حديث النملة ويجرى حواراً مع الهدهد ويأمر الرياح ويحبس الجن بإذن الله ومشيئته . . . هنا تكمن قيمته الحقيقية ، أنا أحسده لذلك ، لست أحسده وإنما أغبطه ، نقيا كان وشفافاً إلى الحد الذى كان يسمع فيه نملة تحذر بقية النمل من جنوده « فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى » .

إنه يذكر خالقه ويقوم بواجب الشكر العميق . عليه الصلاة والسلام فقد كان فى كل مجده وهو يرتدى الذهب والجواهر الكريمة لا يشبه زنبقة من زنابق الحقول : . . كانت أى وردة جميلة ترتدى ملابس أجمل من ملابسه ، ثم تجىء أنت لتطالب بديونك .

ينبغي أن تتسامى ياصديقى قليلا وتفكر فى القيم الروحية للحياة ، ما معنى أن تظل سجيناً داخل قوقعتك المادية . فكر فى جمال الحياة . فكر فى الحب ، فكر فى الآلام التى تعانيها القطط حين تولد ، أما أن تظل تفكر فى دينى لك فهذا معناه أن المادية تغرق العالم . . . وهذا شيء مؤسف . . . تشرب شاى ؟

* * *

الصفحه الخامسه من مذكرات أعزب :

اليوم الثالث فى الأسبوع : لم أزل أمشى كل يوم من الثالثة ظهراً إلى السادسة فى شوارع القاهرة . إن هذه الساعات الثلاث هى أحلك ساعات حياتى . ينبغى أن أتماسك ولا أستسلم لهذه الرغبة الملحة فى الزوجة والنظام والهدوء والبيت والأولاد .

اليوم الرابع فى الأسبوع : فكرت فى رأى زوجتى فى أصدقائى وتأكدت من بصيرتها النافذة ، كانت تقول لى إنهم ليسوا أصدقاء . إنها على حق . إن كل المتزوجين منهم كيوسف وحسن وأحمد لم يتكرموا على بدعوة غداء واحدة . الوحيد الذى تفضل مشكوراً بدعوتى إلى الغداء هو الأعزب فاروق . وقد أكلنا سمكاً مشوياً وسمكاً مسلوقاً وأرزاً بالجمبرى وبطيخاً مثلجاً حتى سكرت بسبب الأكل ، وإن أردت الدقة فقل إننى سكرت من السرور ومنحت فاروقاً رتبة البكوية حين خرجنا من المحل فقلت له : ما تجيب سيجارة يا فاروق بك .

اليوم السادس فى الأسبوع : قرأت خبراً عن رجل عثروا فى بلكونة بيته على ثلاثين ألفاً من الجنيهات ملفوفة فى ورق الصحف القديمة وقد ألقيت بإهمال تمويهاً على اللصوص . ضحكت بشدة لهذا الخبر . كان يظن أنه عبقرى ، لكن شيئاً يشبه الصدفة وليس بالصدفة ، فإذا بالعبقرية

تتناثر بدداً . سكين المبيض يقع فى البلكونة : المبيض رجل فقير وغلبان فماذا يفعل ؛ هل يشترى سكيناً آخر بريال ؛ أبداً ، إنه تصرف بشجاعة ويأس مثل كل الرواد والمكتشفين الأوائل ، ألقى نفسه وراء السكين التى سقطت ؛ سقط التلميذ الذكى فى الامتحان وسقط المبيض وسط ثلاثين ألفاً من الجنيهات : عض الناس على شفاههم فى المقاهى واختلفت آراء الجالسين حول الموضوع .

قال اللصوص : هذا الغبى . . . ذهب إلى الحكومة ولم يضرب النقود فى جيبه . وقال الموظفون البيروقراطيون : معه حق ، إن أحداً لم يسلمه النقود باستمارة ج-١-٢٤٣٧٩٥٦ ، وليس له حق استلامها بعد مواعيد العمل الرسمية . وقال الناس الذين يحبون بلدهم ويشفقون عليه : إن هذا الرجل هو مصر الحقيقية . . .

اليوم السابع فى الأسبوع : كان خطيب المسجد متفيهقاً ، وكان يمضغ الكلام بفمه ، وكان يردد كلاماً محفوظاً ومملا ومتكرراً من عهد السلطان الغورى . كرهت الخطيب وحقدت عليه ورحت أتأمله بغباء وجمود . وحين قال : أدعوا الله يستجب لكم ...دعوت عليه أن يدخل النار .

الصفحة السادسة من مذكرات أعزب :

« أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً » .

كان الربيع فعلا يتهيأ للقدوم من رأس الحارة التى يقع بيتى فى نهايتها ، سددت أنفى وفمى ونظرت إلى الربيع القادم ، وأغمضت عينى وأشحت بوجهى وانتظرت أن يمر ، كانت قطعة الربيع القادمة تحمل كمية من الأتربة التى تسد عين الشمس ، فى البداية هب الهواء هبات متتالية بين الرصيف والشارع ، وكل مرة يهبط إلى الشارع يغرف بيديه التراب فإذا صعد إلى الرصيف كنس بيديه أوراق الصحف وحملها وعاد إلى لعبته ، ومثلما يدور الأطفال وهم يمسكون جلاليبهم فى دائرة ، راحت

الزوبعة تدور بشكل أسطوانى وهي تغرف بيدها كل ما تقع عليه عيناها الترابيتان من أقذار وأتربة ، أخيراً اكتفت الزوبعة بحملها فارتفعت قليلا عن الأرض وألقت منتشية برأسها إلى الوراء ، واندفعت إلى الأمام فى حركة سريعة وارتمت فى أحضانى . وتبعثر الربيع الطلق بكل حمولته من الأتربة على الملابس ووجهى . لعنة الله على الربيع إن كان هذا هو الربيع . . . وبدت الليلة من أولها سوداء كليلة الأمس ، فيوسف لم يحضر بعد ، والمقهى بغيره كئيب ، وزوجتى لم تحضر بعد ، والبيت بدونها مقبرة ، والربيع الطلق يختال بين حفر الشارع وهو يجمع التراب ويلقى بنفسه على المارة ... وأحسست بأنفاسى تكاد تزهق من الضيق ، ويبدو أن ليلتنا تشبه البارحة باستثناء واحد . . . إن اليوم أول الربيع ، وعادت زوبعة ثانية تشق طريقها نحوى وأنا أمضى فى الحارة ، وتوقفت مغمضاً عينى حتى تمر ، أخيراً وصلت إلى المقهى . . .

هذه آخر ليلة لى فى المقهى ، فغداً تعود زوجتى ويعود النظام إلى حياتى وتنتهى مذكرات رجل أعزب . رغم كل التعاسه التى سجلتها كرجل أعزب ، فلست أعرف سبباً لهذه الكآبه الخفيفة والانقباض اليسير الذى أنتظر به الزوجة . مع شىء من الفرح . . . لا أنكر .

* * *

عودة إلى مذكرات زوج . . .

الأحد ٦ مايو سنة ١٩٦٥

انكمش أصدقائى بعد عودة زوجتى مثلما ينكمش القميص بعد غسله ، ولم يبق لى منهم جميعاً غير صديقين يتيمين هما يوسف ومحمود . وترجع معرفتى بهما إلى الأيام التى كنا فيها طلبة بالمدارس ، أى من الأيام التى تنشأ فيها الصداقة بعيداً عن النفاق والمصلحة ، ولا تستهدف

سوى الحب ، وقبل أن أتزوج كان عدد أصدقائى قد بلغ ثلاثة عشر صديقاً ، ثم بدأت زوجتى تتابع اتجاه مشاعر الصداقة عندى لتضرب عليها بيد من حديد . فهذا الصديق يفسدنى ، وذاك يعلمنى السهر ، والثالث ليس فى المستوى الذى يؤتمن فيه على زوج حديث مثلى . والرابع طلق زوجته فهو إذن رجل غير محترم ، والخامس دمه ثقيل وضحكته عالية كضحكات الحشاشين . وهكذا راحت زوجتى تقص أجنحة الصداقة وتتهم أصدقائى وتخلق فيهم القطط الفطساء حتى وقعوا منى ولم يبق لى غير يوسف ومحمود . ولقد تخففت كثيراً بعد عمليات التطهير التى قامت بها الزوجة برغم أنانيتها العظيمة .

وعند ما تنشأ الصداقة بين اثنين يصبح معنى ذلك أن هناك اثنين يفكران معا ويقرران معا ، ويفهم كل واحد منهما أفكار الثانى قبل التصريح بها ويحملان معا هموماً مشتركة وذكريات بعيدة ، ومع الوقت يصبح الصديقان واحداً ويقول كل منهما عن الآخر أنا . . . والصداقة الجيدة كالخمر الجيد ، تحتاج لزمن ، وليس هناك صداقة من النظرة الأولى كالحب ، ولهذا تدوم الصداقة أكثر مما يدوم الحب ، ويستحيل أن نعرف رجلا يومين ونقرر اتخاذه صديقاً ، كما يستحيل أن نغرس شجرة فى الصباح ونجلس تحت ظلها فى الظهيرة . . .

والزواج أنانية عظيمة ، وعندما يقول الزوج لزوجته شيئاً عن ملابسها المكشوفة تزعم أنه يسيطر عليها ويتحكم فيها ويريدها أن تعود للحبرة واليشمك والحجاب .

وفى الحب تتصرف الفتاة تصرف العاشقة فتقزقز اللب على شاطئ النيل ، وتمشى مسافات طويلة ، وتدخن من علبة سجائرك وتكتفى بضغطات الأيدى والأحلام ، وفى الخطبة تحافظ البنت على نقود خطيبها وتدخر له وتخاصمه كده وكده لأنه يدخن بكثرة وتفهمه أنها تخشى على صحته أغلى شىء فى الدنيا بعد حبه . وفى الزواج تحدثه عن الأنانية الفظيعة التى

تدفعه للتدخين ولا تدفعه لشراء تليفزيون لتتسلى به . وأنا أقاوم شراء تليفزيون فى بيتى منذ سنوات ، أومن أننى رجل حر . ويفرض على إيمانى بالحرية أن أقاوم كل أشكال العبودية مثل عبودية الشاشة الصغيرة . وليس ينبغى أن أكون ناقداً لأكتشف هذه الحقيقة. ومثلما أقاوم عبودية التلفزيون أقاوم كذلك عبودية الوظيفة . كما أقاوم عبودية الزواج .

ولقد شاءت حكمة عليا أن يكون رئيسى فى العمل رجلا يشبه زوجتى تمام الشبه ، كلاهما يحدث أكبر ضجة ممكنة لأتفه الأسباب المستطاعة ، وكلاهما يستخدم مدفعاً نووياً لقتل هاموشة صغيرة ، وكلاهما يشبه قنبلة شديدة الإنفجار وموقوتة وتمضى تكاتها مثل تكات الساعة على الجدار ، ولا أحد يعلم متى تنفجر ، إن كلمة طائشة لا أقصدها فى البيت أو فى العمل قد تتحول إلى كرة تذهب وتجىء ، وتجئ وتذهب ، وإذا بالكرة بناء كبير ، وإذا بالبناء الكبير يتقوض وينهار فوق رأسى ، وفى العمل عند ما أحاول أن أفهم رئيسى شيئاً أخطأه أو غاب عن ذهنه يتصور أننى أحاول إهانته ويرفض أن يستمع بحسم وكبرياء نادرين ، وعند ما يضبط لى أى خطأ ولو صغير تتسع ابتسامته الشريرة وينهار فى حديث طويل عن عدم إحساسى بالمسئولية ، وهذا التهاون المعيب الذى أمارس أعمالى به ، ولا ينسى أن يذكرنى بموقفه الشخصى من العمل حين كان فى مثل سنى ، وكيف كان كبير العباقرة وعظيم الأذكياء وقرة عين المسئولية . وأنا لا أصدقه كما لا أصدق زوجتى عند ما تذكر سيئاتى فقط وتضع حسناتها وحدها فى كفة الميزان المقابلة وتأمرنى أن أنظر . . . والمدهش أن رئيسى فى العمل وزوجتى ينظران إلى كما لو كنت شيئاً ، لا كما لو كنت شخصاً ، والإنسان عند ما ينظر إلى شىء ينزلق تفكيره إلى الرغبة فى تملك هذا الشىء ، وعندما يقرر امتلاكه يبدأ فى التصرف على هذا الأساس ، ومن هنا تنبع كافة المشاكل فى البيت والعمل . يمنحنى رئيسى فى العمل إحساساً بأننى موظف لديه ولست موظفاً لدى الحكومة المصرية ،

وتعطيني زوجتي في البيت إحساساً بأنني موظف عندها ولست موظفاً في خدمة النوع والأسرة . وأحياناً يشترى الرئيس في العمل حذاء ضيقاً ويجيء به إلى المصلحة ، هل ذنبي أن الحذاء ضيق وأنه يحطم أعصابه ويرسم فوق وجهه تعاسة الشهداء في قضايا الباطل . هل هذا ذنبي . الجواب أنه ذنبي وذنب كل موظفي القسم التعس الذى يترأسه . إنه يرى كل شيء في ضيق الحذاء ، ويرانا جميعاً مجموعة من الشباب الحمقى لا تصلح لغير الحديث في الدرجات وانتظار العلاوة . ويتصور ساعتها وأحدنا ينبهه لشيء غاب عنه ، يتصور أن التطاول على مقامه هو بعض ما رماه به القدر من مصائب .

وأنا لا أخاف رئيسي في العمل ، وهو يعرف هذه الحقيقة وتثور حفيظته ضدى بسببها أكثر وأكثر ، وأنا لا أعمل هذه الأيام . منذ ستة أشهر على التقريب لا أقوم بأداء أى عمل أستحق عليه أى أجر ، ورئيسي هو المسئول عن ذلك . لقد أقنعني بأن الخطأ جريمة . . . عظيم جداً . . . إن الذين لا يعملون لا يخطئون . . . لن أعمل إذن . . . وأنا لا أعمل ولا أخاف من الرفت في الوقت نفسه ، ففصل موظف في الحكومة يعني التعرض لعدة لوائح لا يعرف الوزير نفسه عمرها ولا تشابكها ولا تعقيدها ولا أصولها التاريخية ، وأنا أعيش بغير عمل رغم أنني آخذ مرتباً من الدولة ، وهناك آلاف مثلي ، ومعظمهم خلال محاولاتهم العمل قد أخطأوا أو اصطدموا بالجيل القديم ، وأقنعهم الجيل القديم أنهم يجب ألا يخطئوا مرة ثانية ، ومن يومها كفوا عن العمل . ولقد أنصت باهتمام لما قيل عن هز الجهاز الحكومي وهززت رأسي يومها وأنا أسمع ذلك إعجاباً بالفكرة ، وتساءلت : أين يكون ذلك ومتى وكيف؟ . . . إن الجهاز الحكومي في نهاية الأمر يتكون من عقليات صنعت من ورق اللوائح المقوى وصنعت أفكارها من حبر القوانين المتعارضة التي يبطل بعضها بعضاً . وأعظم مثال على ذلك هو رئيسي المباشر ، ينبغي تجميد هذا الرجل لصالح الحياة وإطلاق يد

الشباب وإلغاء اللوائح التى جعلتنا نستمر فى دفع الجزية لتركيا حتى عامين مضيا رغم قيام الثورة وانقلاب شكل الحياة . وهذا الصباح حاولت أن أقترح على رئيسى المباشر شيئاً يتصل بتطوير العمل . ضايقنى الفراغ وهزنى الحنين إلى العمل وكان كل ما قلته لا يعدو ملاحظة عابرة عن سير العمل . . . وظهرت على وجه الرجل علائم الغضب وأفهمنى أنه رئيس القسم الوحيد ، وأنه الوحيد المسئول أمام وكيل الوزارة ، وأنه مكلف طبقاً للوائح بإدارة العمل ، وأنه يدير العمل تحت حراسة آلاف القوانين وأنه لا ينوى أن يعطينى مكانه . . .

وتطاير الرذاذ من فمه على وجهى وهو يتكلم ، وانتتر واقفاً وقال : اتفضل مطرحى . . . اتفضل . . .

وبدلا من أن أتفضل بالجلوس فى كرسيه ومباشرة سلطاته تفضلت خارجاً من الحجرة .

حقك فوق رأسى يا سيدى . . . تصرف فى العمل الذى ورثته عن أحد أجدادك الذى كان شخصية بارزة فى بلاط الملك تحتمس ، تصرف يا سيدى وسوف نجلس حولك فى القسم خشباً مسندة تحرق البخور للوائح وترقص لك رقصاً فرعونياً توقيعياً بالموافقة . . .

ولا تسألنى بعدها عن سر تأخر الحياة فى البلد . . .

الأحد : ١٣ يونيو سنة ١٩٦٥

أحياناً تصبح الحياة مليئة وفارغة إلى الحد الذى لا يجد فيه المرء ما يكتبه. كل شيء على ما يرام ، حياتى الزوجية تمضى فوق قضيبين من قضبان السكك الحديدية ، حمار الروتين يهز ذيله فى حياتى وينهق كلما عضه الجوع ، زواجى يدخل عامه الثامن. ويبدو أننى سأصاب بهرشة السنة الثامنة هذا العام ، وإذا كان نظر الإنسان يضعف كلما توغل به العمر نحو النهاية فإن ملاحظاته تزداد حدة وقسوة ، وأنا ألاحظ على زوجتى أشياء لم

تكن موجودة يوم أحببتها. ألاحظ مثلا أنها تتحول لكتلة أسطوانية ضخمة . ويكاد مضى الوقت يزرع فى نفسى إحساساً بأن هذه الكتلة الأسطوانية الضخمة تستدير وتصبح صورة طبق الأصل من أمها . ومنذ يومين تذكرت عيني زوجتى العسليتين وبحثت عنهما، واأسفاه غرقت عيناها فى الدهن وكفتا عن بعث ذلك البريق القديم الذى كان يدفعنى لآلاف الأحلام، وصارت يدها ثقيلة حين تضعهما على كتفى . ولم تعد ألفاظها فى الحديث تتسم بالعذوبة والرقة مثلما كان الوضع أيام الحب الأولى . . . ولقد كانت زوجتى تعزف على البيانو ، وكان صوتها جميلا حين ينبعث من الحمام ، وكانت لديها هوايتها للرسم، ثم غرقت كل هذه المواهب مثلما غرقت كبرياء فرعون بفرعون فى البحر الأحمر وهو يجرى وراء موسى . ومثلما كان فرعون مضحكاً وهو يجرى وراء موسى فكذلك تبدو زوجتى اليوم بحجمها الجديد .

الأحد : ٢٠ يونيو سنة ١٩٦٥

مما يطرب له النساء أن يكون أزواجهن لا أهل لهم ، فترى الخاطبة أول ما تذكر حسنة للشاب الراغب فى الزواج تقول إنه لا أهل له وتبالغ بقولها : « إنه مقطوع من شجرة » . معاذ الله أيجب أن تفنى أسرة بأكملها ليتزوج منها فرد ؟

هذه الكلمات للكاتبة العظيمة السيدة ملك حفنى ناصف أو باحثة البادية كما كانت تحب أن تسمى نفسها ، والغريب أننا نعيش فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورغم ذلك لا نجد كاتبة تقوم بنفس الدور الذى كانت تقوم به السيدة ملك ، ما أعظم هذه السيدة وما أعظم الزهو الذى يمنحه مجرد وجودها فى تاريخ النساء فى مصر . لقد ولدت هذه الأديبة الفاضلة فى نهاية القرن التاسع عشر ، ورغم الفترة القصيرة التى مكثها هذا العقل المضىء فى الدنيا (٣٢ سنة) ، تركت السيدة ملك خطابات كثيرة ما زلت أقرؤها أنا ابن القرن العشرين فأحس بما فيها من إلهام وصدق .

منذستين عاما كان من حسنات الشاب المتأهب للزواج أن يكون بلا أهل ، أن يكون مقطوعاً من شجرة ، وما زال القطع من الشجرة حتى عصرنا هذا ميزة من مميزات الرجل الذى يفكر فى الزواج ، وعند ما يحاول الإنسان أن يتصور منبع هذه الفكرة سيجد أنها تنبع من عالم الحيوان ، لا نجد هذه العلاقات الطيبة بين الحيوان وأمه ، ولانعثر على هذه المودة بين زوجة القرد وحماتها مثلا ، إنما نجد زوجة القرد تتشاجر مع حماتها والقرد واقف يتفرج بانبساط لأن زوجته تضرب هذه القردة العجوزة التى هى أمه . ونجد الأسماك تأكل بعضها فيأكل الابن والده وتأكل الزوجة أمها ، ويجىء الحوت فيأكل أفراد الأسرة المشاكسة جميعاً ، فى عالم الحيوان لا نميز بين الأب والأم والزوجة والابن ، نحن أمام سلم من درجات الخليقة التى لا يستوجب فيه مجرد الوجود حفظ الأنساب والتراحم إنما اختص الله سبحانه وتعالى النوع الإنسانى بهذه الصفة لرقيه . . .

وعند ما يكبر الفيل الصغير ويطرده أبوه ويخرج ويتزوج لا يعود لزيارة أبيه ، ولا يسأل الفيل الكبير عن الفيل الصغير ليطمئن عليه ، أما وسط دنيا الناس فينبغى أن تظل صلة الود قائمة . وليس معنى زواج الشاب أن ينفصل نهائياً عن أسرته ، المفروض طبعاً هو أن ينفصل الشاب نفسياً عن أمه بعد الزواج ، كما ينبغى أن تنفصل الفتاة عن أمها نفسياً بعد الزواج ، أما الحب والاهتمام فينبغى أن يبقيا ، والذى يحدث عند الزواج فى مصر أن ينفصل الشاب عن أسرته ويبقى متعلقاً بها ، ويزيد تعلقه النفسى بأمه كلما مر الوقت ، ويحدث نفس الشعور عند الزوجة تجاه أمها ، وتصبح أجمل لحظات الزوجين هى اللحظات التى يقضيها كل واحد منهما فى بيت أسرته .

لماذا تغار الزوجة المصرية من أم زوجها ، لماذا تغار من شعوره نحو أمه ... السبب بسيط ، إن ما تعطيه الأم لا تعطيه الزوجة ، والأم تعطى أبناءها حباً لا مزيد عليه ، وهى لا تبيع لهم هذا الحب مقابل شىء فى

المستقبل ، إنما تمنح حبها مثلما تمنح الوردة عطرها ؛ وعند ما تغنى الأم لطفلها لا تغنى له على طريقة المحترفين الذين يعرفون أن أحداً يسمعهم ، إنما تغنى له على طريقة العصافير والبلابل التى لا بد أن تغنى أو تموت .

قالت لى زوجتى أمس : أنا عارفه أنت بتحب أمك كده ليه .

تعتقد زوجتى أننى الرجل الوحيد فى الدنيا الذى يحب أمه كل هذا الحب ، لم أقل لزوجتى الحقيقة التالية ، قبل الزواج لم يكن يمر يوم واحد دون مشاجرة مع أمى ، وكانت أمى تلعن اليوم الذى ولدتنى فيه وتتمنى لو أن بطنها انشق بسكين ، وكانت تضربنى فى طفولتى ضرباً مبرحاً ولم أكن على علاقة طيبة معها على أى حال ، ثم حدث حين تزوجت أن اكتشفت أن الحنان الذى أتلقاه من أمى رغم كل شىء كان حناناً أصيلا وحقيقياً وبلا ثمن ، اكتشفت أن الحب الذى كان أبى يعطيه لى كان حباً بلا غرض ولا هدف ولا ثمن ، ورغم كل العذاب الذى سببته لأبى وأمى بشقاوتى لم ينقص حبهما لى ذرة واحدة ، بل لعله زاد . . . أما الزوجة فسبب لها عذاب نصف يوم تكرهك بنصف عام ، وحبها لك يزيد وينقص كلما زاد حبك أو نقص ، ويكتشف المرء أنه كان يأخذ حباً ولا يعطى حباً ، فأصبح عليه كى يتسلم خردلة من الحب أن يعطى قنطاراً من الحب وطناً من النقود . ومن الحمق العظيم أن تتصور الزوجة المصرية أن زوجها يمكن أن يستبدلها بأمه فى نفس الوقت الذى لا تمنحه لحظة واحدة ليحس أنها تشبه أمه حقيقة . كنت أتهم أمى بالنظافة الشديدة التى تبلغ حد الجنون ، وكنت أعتقد أن أى خادمة تعمل فى بيتنا هى خادمة أوقعها حظها السيء فى شر أعمالها ، فلسوف تمسح الصالة مرتين فى اليوم ، ولسوف تغسل الصحون عشر مرات فى اليوم ، واكتشاف ذبابة واحدة فى البيت معناه فتح تحقيق هائل عن العدو الذى سمح بتسرب هذه الذبابة . . .
أما اليوم فأنا أعيش وسط بيت يشاركنى فيه الذباب بجرأة لا عهد للذباب بها ، ولو تأمل المرء حجرة الجلوس فى بيتنا فسوف يعجبه لمعان الحجرة ،

لكنه لو كشف أحد الكراسي وجره من مكانه فسوف يجد وراءه طناً من الأتربة ولعب الأولاد ومقصاً نبحث عنه من زمن !

الأحد : ٤ يوليو ١٩٦٥

وراء كل رجل عظيم امرأة .

الزواج يدفع الإنسان لتحقيق أشياء مدهشة .

هاتان العبارتان من بين العبارات الشائعة عن الزواج . . .

أو قل إنصافاً للحقيقة إنها كانت شائعة ، فقد توصلت بذكائي الزوجي إلى اكتشاف أن لهاتين العبارتين بقية . وراء كل رجل عظيم امرأة قد تعوقه عن النجاح الكامل ، والزواج يدفع الإنسان إلى تحقيق أعمال مدهشة مثل أن يعرف كيف يساوم بائع البطيخ ويهدده بالتسعيرة ، وأن يعرف أسعار السلع وهل ترتفع بالطول أو بالعرض ، وقبل الزواج يعيش المرء على هامش السوق فلا يعرف الفرق بين أنواع اللحم ، ولا يفهم في الستائر أو الصيني أو لفائف الأطفال أو سلك الأواني أو مبيدات الحشرات .

لكنه يضيف بعد الزواج كل هذه المعلومات إلى رأسه ، وعند ما يمتلىء دماغ الرجل بهذه السخافات يعتبره الناس زوجاً مثالياً ، ويمنحونه الاحترام اللائق برب أسرة وصاحب بيت ، وأنا رب أسرة وصاحب بيت وينقسم رعاياي إلى عدة أشخاص أكثرهم مدعاة للقلق وبعثاً للاضطرابات هي زوجتي . وتعتبر زوجتي بينها وبين نفسها أن بختها قد مال بهذا الزواج ، لا تصرح بذلك لأنها تعرف أنه يغضبني لكنها تهامس به بينها وبين أمها ، تعتبر زوجتي أيضاً أنها أحكم امرأة وأعقل مخلوقة على ظهر هذا الكوكب الصغير المسمى بالأرض ، وعند ما تدفع المصادفات زوجتي — وكثيراً ما تدفعها — إلى المقارنة بين عقلي وعقلها ، بين ذكائي وذكائها ، تكتشف دائماً أنها أذكى وأعقل ، ويملؤها هذا الاكتشاف سروراً تبطنه

الحسرة ، فهى قد كتب عليها إلى الأبد أن تظل زوجة لمثل هذا الرجل الذى يخدعه العالم كله .

منذ يومين احمرت عين الشمس واشتدت الحرارة ، قلت لنفسى لا يفل الحديد إلا الحديد . نشترى لعين الشمس الحمراء شيئاً أكثر احمراراً . والتفت لبائع البطيخ وأصدرت إليه امراً أن يحضر هذه البطيخة هناك . وتجاهل الرجل البطيخة التى أشرت إليها وراح يضرب على البطيخ ويقلبه بين يديه محاولا إيهامى أنه بهذه الطريقة الساذجة يعلم أسرار الباطن ، وذلك شىء لا يعلمه إلا الله . ثم انتقى لى بطيخة يعجز عن حملها حمار صغير وقال :

— بالهنا والشفا .

— طيب اوزن . وأثناء وزن البطيخة نفدت قطع الحديد التى يستخدمها فى الميزان فانحنى الرجل على طوبة فى الأرض وحملها وأكمل بها الميزان . واستفسرت كيف نعرف وزن هذه الطوبة — فقال إنه يعرف وزن كل طوبة فى الشارع ، ولوح فى وجهى بسكينه الذى يبلغ طوله طول سيف صغير وهو يقسم على ذلك فصدقته . وبدأت المساومات على السعر ، وقد دفعت خمسين قرشاً والرجل يقسم بالطلاق إنهم يبيعونها فى جروبى بجنيه ، وحملت البطيخة اللعينة فغافلتنى وراحت تزداد ثقلا مع الوقت ، وأقسم إن ثقلها جعلنى أستريح فى الطريق خمس مرات . ولقد فكرت أن أرميها على الأرض من فرط ثقلها ، أخيراً وصلت إلى البيت وصعدت إلى الدور الخامس وأنا أتصور أن زوجتى سوف تمنحنى وسام السعادة الزوجية لتضحيتى العظيمة ، وأضاء وجهها حين نظرت إلى البطيخة ، قالت : كويسه . جبتها بكام ؟ . قلت مراوغاً : المهم تعجبك قالت بحزم : جبتها بكام ؟ . قلت كاذباً : « بتلاتين قرش » . خبطت يدها على صدرها وقالت بإنزعاج : يا خبر أسود ، ليه هو البطيخ مش سعروه . يا إلهى . ماذا لو قلت لها الحقيقة ، إننى أكذب دائماً عند ما أشترى شيئاً

وأنقص من ثمنه حتى تقتنع زوجتى بمهارتى ، ورغم ذلك لا تقتنع . تتصور دائماً أنني خدعت . تتصور دائماً أن هناك تعبيراً فى وجهى ما إن يراه البائع حتى يقرر زيادة الثمن إلى ثلاثة أضعافه . وعلى دائماً عند ما أسأل عن شيء ويقال لى ثمنه أن أبتسم ابتسامة لئيمة وأخفض الثمن إلى الربع وسوف نتناقش على الثمن ثم يرتفع إلى الثلث . وهذا هو السعر الحقيقى للشيء . وهكذا ينبغى أن أتصرف . ولكن هؤلاء الناس يا زوجتى القاسية فى نهاية الأمر بؤساء . تصورى أن ظروفى لم تكن هى ظروفى وأننى نشأت بائعاً للبطيخ ، تصورى أن ظروفك لم تكن ظروفك وأنك نشأت بائعة للفجل . أنت تمزح الآن مزاحاً سخيفاً وتحاول إهانتى فاحترس . على أى حال . . . لنفتح البطيخة ونرى ما اخترته بشطارتك . وشققنا البطيخة فإذا هى بيضاء من غير سوء ، وإذا احمرار خفيف يوشى جوانبها ، وكان طعمها يقع بين الخيار والبطاطا . . . ولم أتمالك نفسى من الضحك فى الحقيقة ، كان مشهد البطيخة يبدو مضحكاً ، وتصورت البائع وهو يقلب البطيخ ويضرب عليه بيده ثم يختار لى هذه العروسة ، فهمت حقيقة الصلة بين الزواج والبطيخ . أنت لا تعلم أبداً ماذا ينتظرك. ليتنى رميتها فى الطريق حين ثقلت فى يدى بدلا من حملها كل هذا الوقت . قالت زوجتى وهى تتنهد بيأس : لو فيه واحد نزل من شغله ومشى لغاية الكوبرى وراح رامى فى النيل « ٣٠ قرش » الناس تقول عليه ايه ؟

— تقول عليه عايز ينتحر .

— أنت تمزح مرة أخرى ، وهذه هى الكارثة ، إنك لا تحس فعلتك المنكرة ، لا تحس أن الباعة يعودون إلى خداعك . . . ألم أحذرك من شراء شيء . . . ماذا أفعل معك . . . ليس أمامك إلا أن تأمرى بشنقى ، هذا هو الشيء الوحيد الذى يضمن لك ألا أقع ضحية للخداع مرة أخرى ، وزاد غضب زوجتى لأننى أسخر ولم تهدأ إلا حين أقسمت لها أن أترصد لبائع البطيخ غداً وآخذ منه ثلاثين قرشاً وأدفنه داخل بطيخة

قبل أن أمضى عنه . وجاء الغداء أخيراً . ومددت يدى لطبق المحشى ورحت أستمع صابراً إلى نشرة الأخبار العائلية التى تقولها زوجتى . كانت هناك أخبار محزنة وأخبار مفرحة وأخبار محيرة . أهم الأخبار المحزنة أن زوج صديقتها قد اشترى سيارة وبدأ يعلم زوجته السواقة . وهذا خبر محزن لأن الصلة منبتة ومنعدمة بينى وبينه ، أهم الأخبار المحيرة أن شقيقتى ولدت طفلا جميلا أطلقت عليه اسم « محمد » ، وهذا خبر محير لأنه يعنى أننى يجب أن أذهب لزيارة شقيقتى وفى يدى هدية . والهدية فى المحل ، والمحل يحتاج لنقود ، والنقود فى البنك ، والبنك يحتاج لضمان . . . وأنا رجل لا يضمن أحداً ولا يضمنه أحد ، ولهذا يغضبنى حديث النقود ، فهى شىء ميتافيزيقى لا أراه وإن كنت أحلم به . دبرنى يا وزير . التدابير لله يا ملك . هكذا كانوا يقولون فى الحواديت ، وهكذا كان الوزير يحيل الموضوع إلى الله ويهرب هو من التفكير . وكذلك فعلت زوجتى . سأذهب بغير هدية وليكن ما يكون . . . ماذا . . . هل يردونها إلينا عند ما ننجب ولداً . . . عظيم . . . كأننا دفعنا وردوها إلينا . . . فأنا لا أنوى إنجاب ولد فى الوقت الحاضر . . . ما رأيك فى الورد ، أليس مثل هذه الكائنات اللطيفة وسيلة للتعبير عن عواطف الإنسان . . . الورود وحدها لا تكفى . . . ينبغى أن تحمل معك هدية ، انتظر حتى أبحث لك بين هدايا الولد الصغير عن هدية جاءتنا ، وعثرنا أخيراً على دبوس جاء لابننا ، حمداً لله ، هذا مناسب تماماً ، لكن شقيقتك هى التى أحضرته لنا حين جاء ابنك إلى الحياة ، ولعلها تذكره جيداً ، لعله دبوس جاءها هدية فلما اضطرتها الظروف قدمته هدية ، وبعدين . . . ولا قبلين ، فكر فى شىء آخر . . . لن أفكر فى شىء آخر ، سأذهب مثل طرزان : لا تفكر فى الورود فلم تعد الورود شيئاً جديداً ، يا أسفى على الناس ، تخلو بيوتنا من الورد ولا تزدهر غير تجارة الورود الصناعية ، وعلى قدر العفوية فى نفوس الناس يعطى الحب نفسه ، وتبور الورود الطبيعية مثلما تبور كل الأشياء

الطبيعية فى النفوس ؛ أذهب بحفنة من الورود وليكن ما يكون . . .
ها هو المستشفى ، الجو يعبق برائحة الحياة والولادة . . .

الأحد : ١١ يوليو سنة ١٩٦٥

صراخ الأطفال يفتح فى صدر الإنسان ينبوعاً من الفرح ؛ فما أغرب هذه المخلوقات التى تستقبل الحياة بالاحتجاج على الهواء الذى يقتحم رئتيها ويحمل إليها صدمة اللقاء بالحياة وصدمة البكاء . . . وضعت الورود الحمراء إلى جوار الولد الصغير الذى أصبح عمره ثلاثة أيام فتحرك قليلا ثم عاد لسكونه . . . كان وجهه فى حجم الريال القديم . وكانت عيناه مغمضتين ويداه منقبضتين وكأنه يمسك بهما الهواء خشية أن يسقط . . . ومددت يدى إلى رأسه ولمسته لمساً خفيفاً فعاد يتحرك بغير أن يفتح عينيه ، وبدأ منظره كقط صغير مرهق . . . كان الولد الصغير الذى لم يختر له أبواه اسماً بعد يبدو مرهقاً كأنه عائد لتوه من رحلة طويلة . وكان عائداً لتوه من رحلة طويلة . . . فى البدء كان جزءاً من ملح البحر ورمل الشاطىء وثمار الفاكهة وطين الحقول الذى ينتج القمح ؛ ثم صار جزءاً من خلية نصفها من ظهر أبيه ونصفها من صدر أمه ، ثم صار يوماً نطفة ، وجاء يوم على هذه الخلية التى لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة فإذا هى تلتصق بجدار الرحم ، وإذا بيد القدرة الرحيمة الخالقة تدفع إليها الغذاء من دم الأم ، وإذا بيد القدرة اللطيفة الحانية تخلق لها ظروف الحياة وسط ظلمات كثيفة تحمى وجودها الضعيف ، ثم تبدأ الرحلة نحو الانقسام المستمر حيث تولد بالمعجزة ملايين الخلايا التى تستمر فى انقسامها وتبدأ عملها الغريب فى بناء الجسد الإنسانى ، ويسجل الطب وجود الجنين لكنه يقف فاغر الفم أمام نوعه . وتصنع ملايين الخلايا أعصاب الجسد الذى يولد يوماً بعد يوم من دم الأم ، وتصنع ملايين الخلايا العظام ، وتتوجه خلايا أخرى نحو عملها لتنشىء المخ ، وتتخصص

كل مجموعة من الخلايا فى إنشاء جزء . وكل خلية صغيرة تنطلق وهى تعرف طريقها وتعرف إلى أين تذهب وتعرف المطلوب منها وتعرف كيف تؤديه على وجهه الصحيح المرسوم المقدر فى علم الله . لا تخطئ ولا تضل ولا تتوه ولا تنحرف ، والإنسان العاقل يريد ركوب الأوتوبيس من شبرا إلى مصر الجديدة فيضل ويخطئ ويركب أوتوبيساً غيره أو ينسى أو ينحرف وهو إنسان عاقل مميز ، لكن هذه الخلايا الخرساء التى لم تتعلم النطق ولا الوعى تعرف طريقها تماماً وتتخصص فى عملها تماماً ولا يقول الطب لها شيئاً ولا تقول لها الأم شيئاً ولا يعرف الإنسان ما يجرى داخل الجسد . لا يعرف ذلك أو يوجهها غير خالق السماء والأرض رب الكون العظيم . . . هو وحده الذى يرسم لها الطريق وهو وحده الذى ينشر لها من رحمته فلا تضل ولا تخطئ ... وتمضى الرحلة العجيبة وتروح الخلايا فى بناء العمارة الصغيرة المعقدة وهى تعمل داخل نطاق ترسمه لها مجموعة من الوحدات الكامنة فيها هى وحدات الوراثة ، فإذا بعين الطفل تشبه عين جده ، وإذا بوجهه يحمل طابع الحسن الذى تحمله أمه . وإذا بالمخلوق الصغير امتداد لآلاف الصفات والخصائص التى حملها أبواه وأجداده . . . ثم تتم المعجزة أخيراً . . . وتجىء لحظة الولادة ، وهى لحظة لا يحددها الطفل ولا تعرفها الأم إنما تجىء فجأة مثلما سيجىء يوم القيامة فجأة . . . ويولد الطفل ، وكل ثانية واحدة يولد إلى الأرض ثلاثة أطفال ، وكل دقيقة مائتا طفل ، وكل عام يزيد عدد سكان الأرض ٦٥ مليوناً من الأطفال ، ٦٥ مليوناً من المعجزات ، ثم يجىء تاجر من تجار الجدل لينفى وجود المعجزات ويتساءل كيف يجمع الله العظام بعد أن تستحيل فى الأرض إلى تراب يتطاير فى الهواء . . . أليس من يبدأ الخلق أقدر على إعادته ، وليس أمام مشيئة الله ما يصعب أو يسهل فتعلق المشيئة بشىء يعنى وقوع هذا الشىء فسبحان من خلق الأرض وسخرها لهذا المخلوق الصغير الذى يتحرك فى فراشه ويفتح عينيه . وفتح الولد عينيه

وثنى قدميه وعاد يمدهما كأنما ليركل الغطاء لكنه كان ملفوفاً بعناية . لم يبد عليه أنه لاحظ الورود الجميلة التى ترقد على الفراش بجانبه . . . أخيراً فتح فمه واندفع فى البكاء . . . كم أنت مضحك ورائع يا صديقى الصغير . ما أغرب أن يجىء عليك يوم فتعرف الحب والقلق والعبادة والحزن وتقرأ الشعر وتحلم بحياة فى الكواكب الأخرى . أنت لا تعرفنى طبعاً ، أنت لا تعرف الكثير فلم يزل عمرك ثلاثة أيام . . . أنت لا تعرف غير الجوع والبرد والضوء الذى يفزعك والهواء الذى يؤلمك بعد أن طالت حياتك فى الدنيا الأولى التى جئت منها . . . لا بأس بذلك إن الله يقيك هذا كله بغلاف من عدم الحساسية فترى الضوء باهتاً وتسمع الأصوات خافتة وتنام معظم الوقت ، أنا خالك الآن . أنت أيها القرد الصغير أول مخلوق جعلنى خالا فتصور سعادتى بك .

الأحد : أول أغسطس سنة ١٩٦٥

اليوم أول الشهر فمرحباً أيها الحزن .

وأحياناً يرقب المرء سير الحياة خلال جلوسه فى المقهى ويفكر . هذا الضجيج الذى لا ينقطع لحظة ولايكف عن النبض . هذه الآلاف من الأحلام والرغبات والأمنيات التى تخفق فى صدور السائرين فى الطرقات . نعم . ليست حياة الإنسان غير سلسلة من الأمنيات التى لا تتحقق . أثق فى ذلك ثقتى أن اليوم هو أول الشهر . ولو أمسكنا الإنسان ووضعناه تحت ضوء الحقيقة وسألناه عن أجمل قبلة فى حياته لتكشف الجواب عن قبلة لم تتم ، وأجمل امرأة هى امرأة لم ننلها قط ، وأجمل أغنية هى تلك التى نسمع منها جزءاً والقطار يتهيأ للسير . . .

النقص يلقى ظلاله على الحياة فما أجمل تسميتها بالدنيا . تلك تسمية توحى بمعناها وتلقى ظلال الهبوط والنقص . . . نعم نعم . . . هذه الحياة لا تساوى جناح بعوضة فما أغرب الذين يتقاتلون من أجل جناح بعوضة . . .

لكنى لا أفعل . . . ألقيت سلامى وجلست فى المقهى أفكر فى كروية الأرض ، وهو تفكير قد لا تهضمه زوجتى لكنها لا تغضب منه ، أحضر كوباً من الشاى ودعنى أتأمل الحياة حولى أيها الجرسون فإننى مفلس ، أنت لا تعرفنى عندما أصبح مفلساً ، حين يمتلئ الإنسان بالنقود لا يفكر إنما ينفق ؛ وعندما يدركه ما أدركنى اليوم تراه يتأمل مثلى . ولن تعرف أبداً أيها الجرسون عمق تأملاتى لأنى بالنسبة إليك لست غير كوب من الشاى وبقشيش ، ولا بقشيش اليوم . قبضت مرتبى اليوم وأدركت لحظتها أن حياة الإنسان سلسلة من الأمنيات التى لا تتحقق . ولقد سجلت بداية هذا الشهر أمنية لم تتحقق . . .

أقنعنى رئيس رؤسائى فى العمل أننى أستحق علاوة ، وحدد موعدها وصرفنى بإشارة رقيقة من يده . ومع البداية فى كل شهر أخرج من البنك فأرفع رأسى للسماء وأهمس : ها هو ينسى للمرة الثانية والثلاثين بعد المائة يا رب فكن شاهداً على ذلك . . . ولا أنكر أننى أحس بالخجل لأننى أقحم السماء فى مشاكلى الخاصة ، ولا أنكر أننى أحب رئيس رؤسائى وإن كنت قد بدأت أشك فى أن وعده لى كان حلماً من أحلام اليقظة ، واليوم أول الشهر فمرحباً أيها الحزن . . . خرجت من البنك ويدى فى جيبى على المرتب حتى لا يتعرض لى أحد . لا شك أن الأمر كان حلماً من أحلام اليقظة . . . كيف أفسر إذن هذه النظرة التى يلقانى بها قائلا : لم أنس . وكيف تطل من عينى نظرة تقول : ما لهذا الأمر جئت أراك فأنا لا أشك فى أنك تذكر . . . لم يكن لهذه النظرات معنى هى الأخرى . . . كانت وهماً كالحياة والحب سواء بسواء . . . وتوقفت قدماى رغم أننى عند دكان الأحذية ورحت أرمق الحذاء الجلدى الذى أغازله منذ وعدنى رئيس رؤسائى بالعلاوة . قلت للحذاء : أيتها القطعة الجلدية الجميلة التى جاءت من ظهر بقرة لطيفة لا أعرف كيف كان لون عينيها . . . إنهم يفرقون بيننا مثلما فرقوا بين روميو وجولييت . وصافحت الحذاء بنظرة مثقلة بالود

والحزن ومضيت . علبة صغيرة من السجائر يا بائع السجائر . ما أعجب من يتحدث عن أزمة الخشب وفى السجاير المصرية كل هذا الخشب الذى يطقطق ويحترق مع السيجارة . علبة صغيرة من السجاير وأسرع . . . لماذا وأنت قادم من البنك . . .

ألا تعرف أيها الرجل الطيب أن الإنسان يزداد بخلا كلما زادت نقوده . إن فى جيبى نقوداً كثيرة ولهذا ترانى أبخل . لن أخبرك عن أصحاب هذه النقود ، لن أقول لك إننى أعمل ساعياً بالبريد أحمل النقود من هنا إلى هناك . وهنا هذه تنصرف إلى العمل وهناك هذه تعنى الزوجة ، وبين المشوارين آكل وأحلم وأدخن وهذه هى الحياة على أى حال ، لن أقول لك إن فى أعماق آمالا لو حدثتك عنها لألقيت يديك بجوارك وانخرطت فى البكاء وأفسدت كل علب البلمونت الصغيرة والكبيرة . الطريق يمشى والناس تتصور أنها هى التى تسير ، حقاً تلعب الأقدار دورها معنا وتخلق الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والكلاب والقطط وملايين المخلوقات الصغيرة كالهاموش فوق هاموشة صغيرة هى الأرض . . .

اليوم يعرف الإنسان من تقدم العلوم أنه يسكن فوق هاموشة صغيرة ، ولعل ضيق الإنسان بالهاموش الذى يئز حول المصابيح ويقتحم العيون ، ودهشته لخلقه وتفكيره : لماذا يوجد مثل هذا الهاموش ؟ ولأى حكمة ؟ . لعل ضيق الإنسان بذلك لا يبلغ ضيق بقية النجوم من الهاموشة الصغيرة التى تسمى الأرض والتى يسكنها ناس كثيرون لكل واحد منهم نجومه وشموسه وكواكبه وأحلام حبه وأمنياته التى لا تتحقق . وكل أمنية لم تولد بعد هى نجم لم يولد بعد . ولد منذ ملايين السنين لكن ضوءه لم يصل بعد . النجم هناك كائن موجود لكن ضوءه لم يزل يجرى ويجرى ، والولد يجرى وراء كرة من الشراب لعل أباه يبحث الآن عن فردة شرابه الضائعة ويشد شعره لاختفائها ولا يعلم أنها قد دخلت دورتها الجديدة وتقمصت جسد الكرة . أحس بدوران الأرض فلم لا أطلب كوباً من الشاى . كوباً

من الشاى ولا تبتسم بكل هذه الثقة . . . لن أعطيك بقشيشاً وسوف ينهار احترامك لى ، لكننى ينبغى أن أعيش يا صديقى أنا الآخر . ما أغرب الذين اخترعوا النقود وطبعوا منها كل هذه الكثرة الهائلة ونظموا وهم يوزعونها أن تصل لأيدى الزوجات بعد أيدى الأزواج مباشرة . ومنذ آلاف السنين وهذه النقود تدور وتدور فلا تتعب ، ثم يجىء اليوم الذى يسقط فيه المرء على الأرض ولا يعود يدور . ماذا صنع بالنقود. لاشىء لاشىء . يا حب يا حب. لماذا تحضرنى ذكراك الآن . يا أجنحة بغير طائر وأغنية ولا لسان . يا حب يا أكذوبة . أنت لا تمنح المفلسين أمثالى غير بعض عطرك الذى يفلت من سيارة مسرعة ، لكنك لا تنزل أبداً من السيارة المسرعة وترشق السهم فى القلب وتعقد الصداقة . كم تغير كيوبيد ، أفسدته المدنية ، لم يعد طفلا بريئاً يحمل سهامه ويلعب بها وسط غابات الصنبور الشاهقة ، أصبح موظفاً مثلى وصار ينتقى ضحاياه وسط أتربة الطرق المختنقة بعادم السيارات . اللعنة على الحب والشاى . خذ يا ابنى هناك ما هذا الشاى . هذا سم يغليه صاحب المقهى منذ أسبوع ، لا تتجاسر بالرد على فسوف أشخط فيك وأنهرك وأعطيك بقشيشاً فى النهاية . اذهب وأحضر شاياً يمكن للآدميين شربه . هل تحب أن تجرب . هل نسقيه لهذا الحمار هناك . ورفع الحمار المتعب رأسه وأنصت . كانت نظراته تمتد أمامه فى جمود حزين ، وكانت العينان الواسعتان تعكسان صبراً عميقاً لا نهاية له على الشتائم التى يوجهها له الآدميون وهم لا يعملون نصف عمله . واستغرقنى منظر الحمار الصغير وخيل إلى أن هناك دمعتين كبيرتين قد تجمدتا فى عينيه . انتهى عمل النهار الشاق وجلس صاحبه يرتاح ، ووقف الحمار تمثالا للصبر العظيم فما أقسى الإنسان وما أشد ظلمه . ومرت حمارة بيضاء فرفع الحمار الصغير المرهق رأسه وقلب شفته العليا وتشمم الهواء ثم عاد ينكس رأسه ويأكل . حتى أنت يا صديقى يئست من الحب مثلى . وتشاتم الصبيان الذين يلعبون الكرة فعادوا يجيئون بسيرة

الحمار ، فعاد يرفع رأسه وينظر نحوى كأنه يستشهد بى ، أنت يا صاحب المقهى تحرك واقذف الصبيان بالماء فهم يثيرون التراب فلا ننعم بالجلسة . يا للمعجزة الكبيرة التى تعلن عن وجودها هناك . نبتة صغيرة خضراء تنمو من الأرض فما أعظم قدرة من يعطى العود الأخضر الصغير قوة يشق بها أسفلت الطريق رغم ضعفه وثقل الأرض . سبحانك ربنا وسبحان قدرتك التى تشق الأرض القاسية بهذا العود الأخضر ، لكن أحداً لا يرمق المعجزة من السائرين فى الطريق فزمن المعجزات ولى كما يقول الحمق . وصل يوسف وبدأت الليلة . . .

الأحد : ٢٩ أغسطس سنة ١٩٦٥

لم أكتب منذ ثلاثة أسابيع . لماذا أكتب . إننى سقيم غاضب أخاصم الحياة وأعتقد أن لى آرائى الخاصة ، هل لدى شىء أقوله ؟ . ربما لم يكن هناك ما يقال ولهذا أدركنى الصمت. أعتقد أن الإنسان حيوان كاتب وليس حيواناً ناطقاً . إن الببغاوات تتعلم النطق الآن ، وهناك نملة قديمة قالت كلاماً للنمل وفهم سيدنا سليمان ما قالته وتبسم ضاحكاً من قولها ليس النطق أو الكلام شيئاً خاصاً بالنوع الإنسانى فهناك لغة تتفاهم بها الحيوانات فيما بينها ، وإلا فكيف تعرف النملة أن هناك علبة سكر تركتها زوجتى مفتوحة فى المطبخ وتبدأ طوابير النمل فى الزحف عليها من أسفل المنور صانعة خطاً طويلا متعرجاً لا يضل الطريق أبداً لهدفه . . . الكتابة وحدها هى الشىء الذى يختص به ابن آدم . . . الكتابة وحدها . . . الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يكتب ... وهو المخلوق الوحيد الذى نزلت عليه آخر رسالات السماء بكلمة : « اقرأ » . . .

وأنا لا أكتب ولا أقرأ منذ ثلاثة أسابيع ، صحيح أننى لا أكف عن الكلام لكننى لا أكتب ، وهذا معناه أننى لا أختلف عن الأسد أو الفيل المسجون فى حديقة الحيوان ، هو الآخر لا يقرأ ولا يكتب ، وعند ما



يوجعه الحنين للغابة والحرية لا يعبر عن حنينه بالشعر ، إنما ينكس رأسه ويركن جبهته على قضبان قفصه وينظر إلى بقعة وحيدة وحرة من التراب خارج السجن فيصرخ الأطفال فرحين : إن الأسد هادئ اليوم لوكان إنساناً لكتب ما يوجعه . وأنا أشتغل أسداً منذ ثلاثة أسابيع .

الأحد : ٥ سبتمبر سنة ١٩٦٥

يؤمن صديقى سعيد مع بلزاك بأن الرذيلة أقل نفقة من الأسرة ، ويثبت صديقى هذه الحقيقة إلى حد كبير . فأنا زوج وهو أعزب ، ومرتبى ضعف مرتبه ، ورغم ذلك أقترض منه نصف مرتبه بصفة دورية ، ولست أعرف كيف يستطيع أعزب مثله أن يقرض زوجاً مثلى ، وأغلب الظن أنه يوفر لأنه يدعى إلى الغداء والعشاء فى كثير من البيوتات الكريمة التى تطمع فى إقناعه بأن طعامهم أفضل الأطعمة وأشهاها ، وأن ابنتهم أحلى البنات وأغناها . ربما كان هذا هو السبب . ولقد ساعدت الطبيعة صديقى هذا مساعدات ضخمة ، فهو يحمل وجهاً يشبه وجه طفل برىء ، وتعطى ملامحه تعبيراً يشبه حكمة القرود الهندية الثلاثة . لا أسمع شرا . لا أرى شرا . لاأقول شرا . أنا الصمت الحكيم الأبله ذاته . وإلى جوار مساعدات الطبيعة ساعدته المدنية أيضاً ، فنظارته ذات الإطار الأسود تقنع الجالسة أمامه بأنه مثقف ولا يرى جيداً مثل الحمير الصعيدية التى تعشى فى الليل ، ويبدو صديقى ببراءته وصمته أقرب إلى التغفيل منه إلى الذكاء ، وهذا هو السر فى أن مئات البنات الجميلات يتصورن أنه زوج مثالى . تقول البنت لنفسها وهى ترقب القرود الهندية الثلاثة التى تجمع حكمتها وتضعها على وجهه : ما أجمله زوجاً فى بيت يمتلىء بالصينى القادم من غزة ، والورود الصناعية ، وتفوح منه رائحة مختلف أنواع المحشى ، ويتصارع الأطفال الأشقياء حول كرسى أبيهم وينسفون الكرسى ، ويعرف هو ذلك لكنه يجلس عليه فى وقار زوجى لائق ، ولست أعرف هل أحسد

صديقى أم أغبطه . فهو يحمل ذكاء نمر يقنع صياده بأنه يسير وراء النمر . بينما فى الحقيقة هو الذى يسير وراء الصياد ، وتبدأ قصص صديقى عادة بأن يلمح رؤساؤه فى العمل مخايل النبوغ الزوجى على وجهه ، ويتقرب إليه رؤساؤه فى العمل ويكلفونه بأسهل الأعمال وألطفها . . ويخبرونه أنهم يرون فيه عبقرية نادرة ، ثم تنتهى المناورات الحاذقة بدعوته إلى العشاء ، ولا ينتقل صديقى إلى أى دعوة بغير أن يفيدنى علماً ويسحبنى معه كمستشار زوجى وخبير من خبراء الحرب الباردة والساخنة ومحارب قديم فى معامع الزواج . ونحن متفقان تماماً على أننا يجب ألا ننخدع بالطعام الذى يقدم إلينا عن الطعام الآخر الذى يعرض علينا . فنحن قد خطونا فى عرين الأسد ، والظلمة ساقطة ، والعروسة تبدو فى ظلام الأنوار الكهربائية مثل ساندريللا ، وأحذر صديقى من أنه إلى جوار المساعدات التى تقدمها الأضواء للعروسة تقدم المساحيق والأزياء ، وكذا الكوافير بقية الموضوع . . . وحين يعجب صديقى بفتاة أذكره على الفور بأنه لم ير وجهها حين تغسله فى المساء ويذوب نصف جمالها فى الماء ، وهكذا يفيق صديقى ويعود لعقله ، وحين ندخل بيت العروسة المرشحة نطأطئ رؤوسنا ونتصنع الوقار العظيم والأدب ، ورغم أننا نعيش فى عصر العلم إلا أن الآباء يفضلون الأدب على العلم ، وبعد أن نجلس أدير دفة الحديث بما عهد فى من براعة مصدرها إحساس صادق بأن هناك فى الغرفة المجاورة فتاة ترتدى أفضل ملابسها وتقف أمام مستشار المرأة القديم الخالد . فتاة تقف أمام المرآة وتتزين وتجرب أن تبتسم وتلوى شفتها السفلى لتزداد إغراء مثل « كيم نوفاك » ثم تقتنع أنها ستبدو مضحكة لو فعلت ذلك فتقطب ، وتدخل الأم فتجد ابنتها مقطبة . .

- مالك بعد الشر ؟
- بكرهه .

ويختلف هذا الحوار من بيت إلى بيت ومن طبقة إلى طبقة ومن زمن

إلى زمن . . . فى الريف المصرى مثلا تدخل البنت بفناجين من القهوة التى اقترضتها الأسرة من بيت شيخ البلد . ويدور الحوار بينها وبين أبيها هكذا :

ــ افردى خلجتك العكرة خلى الراجل يشوفلك سحته .

ــ خدامتك يا با .

وفى الأسرة البرجوازية يدور الحوار هكذا :

ــ يا ماما الفستان باين خالص إنه كان ستاره قبل كده .

ــ وطى حسك يا بنتى انت حتجرسينا .

وفى الأسر الصعيدية الكبيرة لاأحد يرى أحداً ، الرجال يرون الرجال ويتفقون مع الرجال ويقرأون الفاتحة ، والبنت دونها خرط القتاد ، وهو نبات أغلب الظن أنه لا يسمح بالسير ولا بالرؤية . وفى الأسر الأرستقراطية يدور الحوار بين البنت وأبيها هكذا :

تقول البنت لأبيها وهو يقف أمام المرآة ليصلح الكرافتة :

ــ افرد وشك يا دادى كده ، الناس مستنيه تشوفك علشان ورانا مشوار فى النادى .

ــ حاضر يا بنتى حاضر .

وبرغم اختلاف الحوار باختلاف أطرافه نجده يجرى دائماً فى خفوت سر مهموس تحت شجر التفاح . ولعل الرجل الوحيد الذى نجا من تدخل الأهل والأصدقاء فى زواجه هو آدم عليه الصلاة والسلام ، وبعد هذا الحوار تدخل البنت ، إذا كانت مكسوفة تنكس رأسها ، وإذا كان العريس هو المكسوف نكس رأسه . . . وعلى أى الحالات لا يرى خطيب الطبقة البرجوازية من خطيبته غير ما يقدمه رجل كان يشتغل فيلسوفاً أيام اليونان ثم انتهى به الأمر إلى العمل حلاقاً للحريم . سقراط . هذا ما يراه الخطيب من خطيبته وهى تنكس رأسها فلا يبدو غير شعرها . . . ويحدث دائماً فى هذه اللحظات الحرجة أن أنحنى على صديقى وأهمس له بكلمات .

أى كلمات . فيبتسم ابتسامة مؤدبة ويختلس نظرة إلى الفتاة ، ويفسر الأب ابتسامته بالرضى العظيم عن الإنتاج . ثم نفتح موضوعاً للحديث . أى موضوع . . . ونقول كلاماً كثيراً . . . أى كلام . . . أزمة الكبريت مشكلة فيتنام . حتى الجو والطقس يصلحان موضوعاً للحديث . ونبدى إعجابنا بالقهوة فيخبرنا المضيف أنه بن يمنى أصيل ، وننتقل إلى موضوع اليمن . ويجىء العشاء . . . وننتقل إلى المائدة العامرة التى سوف تكلف الأب كثيراً وتدعوه إلى سياسة التقشف أسبوعين على الأقل . ونأكل ونتحدث ويقسم علينا المضيف أن نذوق هذه المحشيايه ، ثم يحلف أن نأكل هذه اللحميايه ، ثم هذه المحشيايه ، ثم هذه اللحميايه وهكذا . . . حتى إذا انتهى الأكل انطفأت قوانا المفكرة وتحول كل واحد منا إلى معدة كبيرة ركبت فيها أطراف من الصعب أن تتحرك . وتجىء القهوة والشاى ، ولكن هذه السوائل تسبح فوق الطعام الثقيل ولا تستطيع تقليبه، ثم نستمع معا لأم كلثوم من فوق ريكوردر أحضره أحد أقارب المضيف من غزة أو اليمن . . . وتغنى أم كلثوم أغنيتها « حب إيه اللى انت جاى تقول عليه » . . . ونسمع الأغنية هكذا . . .

ـــ حب إيه اللى انت جاى تفلقنا بيه . انت فاهم قبله معنى الحب إيه . هوه مين . . . انت فاكر يعنى إيه . . . فوضه هى . . . حاجه سايبه . . . ده انت لو حبيت يومين كان ملاك خلاك هواك . حب إيه. روح يا شيخ . امشى بره . إجرى إلعب . . . انكتم واخرس تمام . . . يا سلام . حب إيه اللى انت جاى تقول عليه .

هكذا نسمع الأغنية من خلال أبخرة الطعام التى تتصاعد على الدماغ . . . ونتصور أن أم كلثوم ليست هى قائلة هذا الكلام . . . إنما نحن أمام زوجة تنفض زوجها فى الهواء قائلة له:!

. حب إيه اللى انت جاى . . . وساعتها نتمنى أن نهرب إلى أغنية ثانية لأم كلثوم . . . أغنية ترسم صورة حبيبة تقول لحبيبها :

أغار من نسمة الجنوب على محياك يا حبيبى . . .
وأحسد الزهر حين يهفو على شفا جدول لعوب . . .
وفى الأغنية الأولى نحن أمام حادث زواج ... وفى الأغنية الثانية نحن أمام وهج حبيبين . . وعند اكتشاف هذه الحقيقة نقرر الانصراف والبحث عن الأغنية الثانية . . .

الأحد : ١٩ سبتمبر سنة ١٩٦٥

يقول ماكس مولر المؤرخ الشهير : « ليس ثمة شعب قديم أو حديث رفع منزلة المرأة مثلما رفعها سكان وادى النيل » . والنقوش تصور النساء يمارسن حياتهن بحرية ، ولقد دهش الرحالة اليونانى من هذه الحرية ، وكتب ديودور الصقلى يسخر من احترام الرجل المصرى لزوجته قائلا : « إن طاعة الزوج لزوجته فى وادى النيل كانت من الشروط التى تنص عليها عقود الزواج » . ولم تكن قيمة المرأة مجرد كلمات يستنتجها علماء الآثار نتيجة لحديث الشعراء أو فلاسفة الزمن القديم ، إن الوثائق تثبت حرية المرأة الاقتصادية فى الزمن القديم . وهناك وثيقة من أقدم الوثائق فى التاريخ ، وهى وصية من عهد الأسرة الثالثة توصى فيها السيدة نب ست بأرضها لأبنائها ، ولقد تنبه الحكيم المصرى القديم بتاح حوتب لهذا الموضوع وأوصى باحترام المرأة وحذر من مجرد معارضتها ، قال بتاح حوتب ، « إذا كنت ناجحاً وأثثت بيتك وكنت تحب زوجة قلبك فاملأ بطنها واكس ظهرها ، وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذى تكون فيه لك ، ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه ، وإن عارضتها كان فى ذلك خرابك » .

ويقول فلاندرز بترى فى ذلك : « لقد كان الزوج حتى العهود المتأخرة ينزل لزوجته فى عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه المستقبلة» . وتقول إحدى قصائد الغزل التى توجهها امرأة من ثلاثة آلاف سنة إلى حبيبها : « أى صديقى الجميل . . . إنى أرغب فى أن أكون . . . بوصفى

وجتك . . . صاحبة كل أملاكك » .

وهكذا ترجع عملية انقضاض الزوجة على المرتب ومكاسب الزوج إلى تقاليد عمرها ثلاثة آلاف سنة . . . عظيم جداً . . . فهمت الآن سر تصور زوجتي أن كل قرش أكسبه من حقها أولا . . . فهمت ذلك الآن لكنني لا أفهم السبب المباشر الذى يعطى المرأة هذا الحق ... هل تتصور الزوجة أن هذا حقها لأنها زوجة فقط ، أم لكونها أما قبل أن تكون زوجة . . . لقد كان كل طفل فى ذلك الزمن القديم يتربى على احترام بالغ للأمومة ، ويتعلم منذ نعومة شعره وأظافره أن الأمومة شىء مقدس ، وأن أعظم ما فى المرأة أنها أم . . . وما زالت إحدى أوراق البردى تتحدث بنصيحة يوجهها الحكيم « آنى » ويقول فيها :

« ينبغى لك ألا تنسى أمك ، فقد حملتك طويلا فى حنايا صدرها ، وكنت فيه حملا ثقيلا ، وبعد أن أتممت شهورك ولدتك ، ثم حملتك على كتفها ثلاث سنوات طوالا ، وأرضعتك ثديها فى فمك ، وغذتك ولم تشمئز من قذارتك ؛ ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف فى كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت » .

ومن هنا كان ينبع مركز الزوجة . . إنها أم ممتازة تقوم بتربية الأولاد بنفسها وتتحمل فى ذلك مشقة نموهم بغير أن تشمئز أو تشكو . . . أما اليوم فإن الزوجة الحديثة ليست أماً ممتازة . . . إن زوجتى تختلف عن جدتها الفرعونية ، إنها بعد أن تلد تسلم طفلها إلى أثداء صناعية يملؤها غذاء معلب يباع فى كل الصيدليات ومحال البقالة ، ثم إذا كبر الولد قليلا أسلمته إلى الخادمة فى الفترة التى تذهب فيها إلى العمل . . . ثم أسلمته إلى أمها فى الفترة التى تذهب فيها إلى السينما ، فإذا كبر الولد قليلا وهبته لوالدتها لتربيته ، أنا لى ولدان أحدهما عند جدته لأمه ، والثانى عند جدته لأبيه .

وإذا كانت زوجتى تعتبر أننى لم أتلق التربية الكافية فى بيتى . وإذا كنت أعتبر أنها لم تتعلم الذوق الكافى فى بيتها ، فهذا معناه أننى سوف أخرج إلى الدنيا ولدين : أحدهما تنقصه التربية ، والثانى يفتقر إلى الذوق : ما قيمة التطور الذى أدركته المرأة بعد تعليمها إذا كان أبناؤها لا يستفيدون بشىء منه . ما هى القيمة ؟ .

الأحد : ٣ أكتوبر سنة ١٩٦٥

بعد ٨ سنوات من الزواج اكتشفت زوجتى أن زواجنا كان تصرفاً عشوائياً ، وأنه يستمد قوته من قوة تحملنا الخاصة ، وأن سر استمراره التعس هو حفنة من الأطفال . هذه هى الفلسفة العظيمة التى اهتدت إليها السيدة .« كريستوفايه كولمبسايه» بعد ٨ سنوات من الحياة الزوجية ، ولقد كان اكتشاف هذه الحقيقة مصحوباً بكل الدلائل التى تصحب اكتشاف الحقائق الكبيرة فى الأرض. أطرقت زوجتى وقطبت جبينها الضيق وراحت تقطيبتها تجمع التجاعيد التى أضافتها معاملة الزمن لوجهها وكان واضحاً أنها تفكر .

والتفكير عند زوجتى عملية عضلية ذات شقين مزدوجين . وبعبارة أسهل يتم تفكير زوجتى على مرحلتين : مرحلة الأسباب والنتائج . وإذا كان بين المنصفين والعقلاء من يبحثون عن الأسباب التى تخلق نتيجة معنية ويرتبون على كل سبب نتيجة ، ويحللون ردود فعل هذه النتائج ، فذلك طريق لا تعرفه زوجتى ، إنها تبدأ بإصدار حكمها على الموضوع . وعليها أن تجد المبررات لرأيها من أى أسباب كانت .

آه . أنا زوجة تعيسة حظها نكد . لماذا . . . لأن زوجى يخرج كثيراً فى المساء . لماذا لا يبقى فى البيت . لأنه رجل عينه زائغة ، وهو يعتقد أنه يهرب منى بخروجه . لماذا يهرب منى والمفروض أن يحدث العكس وأهرب منه أنا ، لماذا يا ربى كل هذه التعاسة ، وما الذى فعلته لأستحقها

واستمرت زوجتى تتكلم . لم أعد أسمع ما تقوله . إننى أفكر فى آلاف الأشياء وأرسم فوق وجهى ابتسامة رقيقة مؤدبة هى التى يتعلمها الرجل بعد زواجه . وهذه الابتسامة يمكن أن نلخصها فى كلمة (الصبر) . هذا ما أفدناه من زواجنا . تعلمنا الصبر . والصبر ينجى . لكنه فى نفس الوقت ثقيل . والدنيا ليست حارة وليست باردة . والأولاد نائمون وكل شىء صامت . والتمثال يقف على البوفيه وينظر إلى زوجتى بعينين جامدتين . وخيل إلى لحظة سريعة أن التمثال يبتسم . . .

الأحد : ١٧ أكتوبر سنة ١٩٦٥

أى شىء تحت الشمس لا يعبر نفس دورة الشمس .

.الحزن يعقب الضحك والدموع تجر ذيل الابتسامة والزواج هو خاتمة الحب ، والأرض كرة تدور فينبعج باطنها وتنقص أطرافها ويتغير كل كائن فوقها وداخلها . الحى يزداد اقتراباً من الموت ، والميت يزداد اقتراباً من البعث ، وليس ثمة من ثبات . العواطف تهتز بتأثير دوران الأرض ، والأحاسيس تلوحها الشمس ولا دوام لشىء . . . كل شىء يعبر دورة الميلاد المفاجئ فالنمو المعذب فالأحلام العظيمة فالركون إلى التقاليد فانحناءة الموت . ليس ثمة من كائن بنفسه غير ذى الجلال سبحانه ، خلق الكون وخلق الدنيا والآخرة وخلق الموت والحياة رحمة منه وفضلا على أى حال ، فما أغناه عن عبادة الخلق وما أفقر الخلق إلى عبادته. أخيراً مات جدى عن مائة وعشرين عاماً عاشها على الأرض ، شهد الرجل دولا تقوم ودولا تذهب ، وعاصر حربين كونيتين ، وشهد احتلال الإنجليز وهو يقترب من الثلاثين من عمره ، وشهد خروجهم وهو يمشى على المائة الثانية من عمره ، ولقد كان الرجل بالنسبة لى كنزاً من الذكريات وكتاباً رشيقاً لا يكف عن المرح ، ثم أدركه ما يدرك كل حى على الأرض ومات . لم أبك حين بلغنى النبأ . وإنما دهشت . زحف داخلى نوع من الدهشة

لم أعرفه قبل ذلك . . . نوع من الدهشة تحسه الحياة عندما تواجه الموت . مات جدى أخيراً وفى أفريقيا يعبر الرجل عن موت أبيه ليلة أمس بقوله : « لقد مت ليلة أمس » .

وذلك صحيح تماماً . إن الإنسان يموت مرتين : مرة حين يموت أحد أسلافه . ومرة عند ما يقول أولاده عنه : يرحمه الله . أما الموت الذى يصيبنا مباشرة فلا نحسه ولا نعرف أنه أصابنا ، وعند ما نعرف هذه الحقيقة نكون قد متنا وانتهى الأمر ، وتصبح معرفتنا لها تساوى عدم المعرفة بها . وأنا لا أعرف كيف أموت ولا متى تدهمنى هذه المصيبة ، ويخيفنى ذلك خوفاً يمنعنى من التفكير فى الموضوع ، وأنا لست غبياً للدرجة التى تصور لى أننى عند ما أموت سوف أنتهى وأصبح تراباً وعظاماً وأذهب ، أعلم أنى سأصبح تراباً وعظاماً لكننى لن أذهب . سأعود مرة أخرى لتقديم كشف الحساب عن جميع المغامرات والخيانات والأكاذيب ، وسوف تدرك زوجتى يوم القيامة ما فعلته وستكون الكارثة مزدوجة . وسوف تنخرط فى البكاء على حظها التعس ولن ينقذنا من بكائها شىء . ولعل هذه الكارثة تهون إلى جوار كارثة المواجهة بقدرة من تعنو الجباه لرحمته وعذابه .. وخيل إلى وأنا أقطع الطريق سيراً نحو بيتى أننى أسير على أرض ليست هى أرض الدنيا ، وسقطت دهشتى قليلا واحتلت الكآبة مساحة الجزء الذى سقط ، وفى بيتى قلت لزوجتى ــ باقتضاب ــ جدى مات .

اصفر وجهها قليلا وضربت بيدها على صدرها وقالت شيئاً لم أنتبه إليه ، ولقد حدث لى شىء غريب وأنا أرقب هذه الموجة الخفيفة من الدموع التى تتجمع فى عينيها المرهقتين . . . أصابت ضربتها بيدها على صدرها مكاناً ما فى روحى ، وانفجر ينبوع قديم من الحب ، وأحسست أننى أراها لأول مرة . . . كم تساءلت قديماً : لماذا برغم كل شىء أحب هذه المخلوقة السمينة التى أقتنيها فى بيتى باسم الزواج ، أدركت ساعتها لماذا أحبها دون أن أدرى ، قدرتها على الحزن من أجلى ، أى زوجة مصرية تستطيع أن

تحزن على زوجها حزناً لا مثيل له ولا عمق لسواده ولا شواطئ لملحه .
الآن أفهم سر هذه الموهبة التى ورثتها زوجتى عن أمها إيزيس قبل أن
ترد الحياة إلى زوجها أوزوريس ، وفى كتاب ادوارد وليم لين المستشرق
الإنجليزى صور لنساء مصريات يرتدين السواد وتشى عيونهن الواسعة
بمقدار الحزن العظيم الكامن المخبوء فى انتظار أى ضرر يصيب الزوج
حتى ينطلق . . . هذه موهبة الزوجة المصرية وهى موهبة نادرة . . . ولقد
بكت زوجتى فى صمت ، وظللت أجلس أمام مكتبى صامتاً ،
أتأملها وأنظر للأولاد ، واستقبل الأولاد النبأ بغير إحساس . وقلت
لابنى الكبير الذى يبلغ السادسة : إن والد جدك قد مات . ضحك
وذكر اليوم الذى صحبه الشيخ العجوز إلى حديقة الحيوان . لم يزل جدى
حياً إذن فى ذاكرة الولد . فما أغرب دنيا الأطفال . ومع فجر اليوم التالى
كنت فى القرية . لم أنم طيلة الليل لأدرك موعد الصديق الراحل قبل أن
يعود إلى أحضان الأرض ليمضى فى دورته حتى يعود لمالك الأرض مرة
أخرى . . . وبدت المأساة أقل حدة فى الريف . . . ليس أقدر من
الفلاح المصرى على النظر إلى الموت هذه النظرة الهادئة الثابتة المحدقة . . .
يرون هناك كثيراً من الموت والبعث ولا يدهشهم ذلك ، النبات يستوى على
سوقه ويكبر ويعطى الثمار ثم يموت ، يبدو موته طبيعياً مثلما كانت
حياته طبيعية ، ثمرة البسلة تتشقق وتخرج البسلات ويرتمى الغلاف على
الأرض مجهداً أصفر ، يترك مهمة التنفس للبسلات الخضراء الطرية . . .
الأرض نفسها تموت وتعود للحياة فى الريف . كل ضربات الفأس فى
الأرض الجافة لا تؤثر فى الأرض لأنها ميتة ، وإذا سقط الماء عليها
وضربتها الفأس عادت إلى الحياة . يمضى ذلك كله بإشراف لطيف مهيمن
وغير مرئى . . . لا بأس على أى حال . . . ليس هناك غير هذا الخواء
الصغير الذى يحسه المرء حين يدرك أننا لن نعود أبداً إلى سماع هذا الصوت
أو لقاء هذه الضحكة . ويخيل إلى أن ما يجعل للحياة معنى يجعل للموت

أيضاً معى .
ما أغرب الحياة . . . ها هو الكلب الذى كان جدى يطعمه يهز ذيله لى . . . أيها الكلب الأصفر الخالى من الجمال، تستطيع أن تهز ذيلك وتعتمد على صداقتى : الرجل الذى كان يطعمك قد رحل . . . لكنه فعل شيئاً غريباً جداً منذ سنوات بعيدة. أحب يوماً فانقسم عشرات المرات وامتد فى الحياة بعشرات الصور التى تقف أمامك الآن إحداها . . . ولسوف أمد يدى إليك بقطعة الخبز فالرجل صاحبك العجوز مات وذهب ولكنه لم يذهب ولم يمت .

الأحد : ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٦٥

الزواج سجن مؤبد ، وعلى الإنسان ما دام قد تزوج ورضخ لسنة الحياة أن يحاول تحويل جدران سجنه إلى مكان جميل ، وهنا ينصح خبراء الديكور بستارة هنا وفازة هناك . وأنا رجل متحضر ومتمدين وأصدق خبراء الديكور ، فمنذ أسبوع قررت أن أضع فى بيتى شيئاً يجعله أكثر جمالا ، وهكذا مررت على محل لبيع العاديات القديمة ، ويضم هذا المحل آلاف التحف والكراسى والبانوهات والبيبلوهات والجاليهات والفازات وكل كراكيب الطبقة الأرستقراطية... وكانت هناك صور عديدة صور لخراف يمشى وراءها رجل ،وصور للموز والبطيخ والشمام، وصور لنساء عاريات . وكانت الألوان فجة وبلا لمسة فن واحدة ، ثم فوجئت أننى أمام صورة لمونتجومرى . . . كان الماريشال الذى كسب الحرب الثانية على صحراء أفريقيا يرقد فى برواز غامق وقد رسم الوجه بالألوان المائية بحساسية شديدة ، وثمة توقيع غامض تحت الرسم .

واستوقفتنى الصورة كثيراً فقد كانت فى حجم الجزء الذى سقط بياضه من الحائط . . وكنت أحلم باخفائه . . قلت للرجل :

— الصورة دى بكام .

فتح عينيه ونظر إلى الصورة ثم قال بهدوء : هات نص جنيه .
قلت بحزم : ريال .
قال بتوسلٍ : هات خمسة وعشرين .
قلت مصراً : ريال .
قال : شيل يا عم حلال عليك . فيها برواز يسوى جنيه .
قلت وأنا أزيح التراب عنها لأنظر إلى العينين الذكيتين : جايبها منين . ؟

قال — الله أعلم كانت فين . دى بقالها تلات سنين ما حدش راضى ياخدها . الدنيا دى قسمه بصحيح .

تلات سنين ما حدش راضى يشتريها . محدش بيفهم غير حضرتك . . . شيل يا بيه شيل . وحملنى الصورة وودعنى حتى باب الشارع وتركنى أحمل مونتجومرى عائداً إلى البيت.

ما أصغر الدنيا . ها أنذا ألتقى بمونتجومرى برغم أننى لم أتعرف به قبل ذلك ، وها هو اللقاء يتم بيننا فى مكان صغير متواضع فى إحدى حارات القاهرة . وضعت الصورة فى يدى ومضيت .

كنت سعيداً لأننى سأستضيف مونتجومرى فى البيت ، وصحيح أن الشعب المصرى كان يتمنى هزيمته وهزيمة الحلفاء جميعاً ليشمت فى الاستعمار الذى ظل راقداً على قلبه ، لكن المتنورين من أبناء الشعب كانوا يقفون ضد النازية بكل ما تمثله من طموح غير عادل وأحمق . على أى حال . لم أكن وقتها فى سن تسمح لى بمناقشة هذه الأمور ، كنت طفلا تافهاً كل اهتماماتى فى كرة القدم ، لكننى كبرت الآن وصار بوسعى أن أرفض الكرة كحل وأفكر وأستضيف فى بيتى صورة رجل رفضه الجميع ثلاث سنوات . وضغطت الجرس ففتحت زوجتى الباب .

* ايه ده — مفاجأة . . .
* (بفرح) مفاجأة ايه — (بغموض) صورة عظيمة .

* صورة مين ؟ — صورة مونتجومرى .
* مونتجومرى إيه — يا خبر اسود . مش عارفه مونتجومرى مين أتنسى التاريخ .
* تاريخ إيه وجغرافية إيه وزفت إيه . جايب لنا مصيبه فى البيت بدال ما تجيب كيلو برتقال للولاد .

هذه هى الزوجة المصرية . البرتقال لديها أهم من التاريخ وعبرته .

* ارمى يا راجل حتردم لنا الصاله تراب .
* أرمى فين .
* ارمى بره فى الشارع . . .
* أبداً . . . استنى بس أما نعلقها ، وتشوفى منظرها .
* منظر إيه . . . الصورة دى مش بايته هنا الليله دى . بتحدف علينا البلاوى دى منين .

— غريبة جداً (ملاحظاً لأول مرة أن زوجتى شرسة) . . . الصورة دى مش طالعه م البيت . وكبرت الحكاية فى رأسى حين أقسمت زوجتى أن الصورة لن تبيت فى المنزل ، وتساءلت لنفسى كيف أكون سيد هذا البيت ولا أستطيع استقبال ضيف فيه ، لكننى أمام التهديد لم ألبث أن تراجعت عن موقفى محللا هذا التراجع وواصفاً إياه بالمرونة . وقلت للخادمة أن تحمل الصورة إلى البواب حتى آخذها إلى العمل إذا جاء الغد . وحين دخلت على رفاق المصلحة وأنا أحمل صورة مونتجومرى انهالت على الأسئلة عمن يكون ولماذا . قلت : هذه صورة رجل رفض الناس شراءه ثلاث سنوات وكان من قبل حين يهبط الصحراء ترتعش أحذية الجند والضباط الأصدقاء والأعداءعلى السواء . . . إسمه مونتجومرى . . . ولكن تيمناً بأم كلثوم سنسميه مونتعمرى على وزن انت عمرى . . .

وعلقناه فى المصلحة . . .

الأحد : ٣١ أكتوبر سنة ١٩٦٥

يتعلم الإنسان بعد فترة من الزواج شيئين : الصبر والاقتراض . . . والصبر فى الحياة الزوجية أنواع ، كما أنه خارج الحياة الزوجية أنواع . فإذا كان الصبر على المعصية والصبر على الطاعة والصبر على البلاء درجات يقف الأخير على قمتها ، وإذا كان أهل العافية ينظرون إلى أهل البلاء حين يعطيهم الله تعالى فى الآخرة ويتمنون لو أنهم نشروا بالمناشير فى الدنيا ، إذا كان ذلك حقيقة فما أجدرنى أن أصبر على حياتى الزوجية ، والصبر فى الحياة الزوجية يعنى الصبر على طباع الزوجة وطعامها ، فإذا كانت زوجتى تشبه العاصفة فإن طعامها يشبه المياه الراكدة الآسنة . وأنا لا أتفاءل كثيراً من دخول الشتاء أو دخول زوجتى إلى المطبخ ، ذلك أن دخول هذين المخلوقين أعنى الشتاء وزوجتى . . . يعنى مزيداً من الصبر ومزيداً من القروض .

تقول زوجتى وهى تكفهر بوجهها : الشتا دخل .

وأتظاهر بأننى لا أفهم ، وأتحدث عن الشتاء من وجهة النظر الجمالية البحت . السماء فى الشتاء والسماء فى الصيف ، النجوم فى الصيف والسحاب فى الشتاء . . . كيف تبدو السماء فى الصيف قبة زرقاء رحيبة ورائعة وتشبه بنجومها ساعة عظيمة تدل على الوقت ، لكننى لا أنظر للسماء فى الصيف غير مرة أو مرتين فقط ، وأحس بالدوار أمام الفراغ العظيم الذى تملؤه أشياء لا يدريها سوى الله . ويزداد إحساسى بالخوف وأنا أرمق النجوم الكثيرة التى توحى إلى بعدد الذنوب التى ارتكبتها وينفجر داخلى ينبوع من الأسى الهادئ على رحمة الخالق وعصيان المخلوق . . .

أما فى الشتاء فلعبتى هى النجوم والسحاب . وأنا من أصدقاء النجوم وبرغم أننى أعلم أن هذه النجوم هى مواد فى حالة احتراق نووى بطىء ومستمر ، برغم معرفتى أن الاقتراب منها هو الجحيم ذاته ، برغم ذلك تقوم

بيني وبينها الصداقة . وصحيح أنها صداقة على البعد لكنها قائمة : ويحدث كثيراً في الشتاء أن أخرج إلى البلكونة وأنظر إلى السماء وأروح أرقب هذه السحابات اللطيفة التي تلعب مع سحابة صغيرة لم تزل طفلة وتروح تصنع لنا أشكال الحيوانات وتظهر مرة كالجمل ومرة كالفيل ومرة كالحصان وفي كل مرة تضحك السحابة الصغيرة فيصفو لونها وتزيد شفافيتها وتوحي أكثر بالخفة والحركة اللطيفة المركبة . . .

تنسى نفسها أثناء الضحك فتتبدد . . . وتبكي السحابات الكبار عليها وينزل المطر . ابتسمت في وجه زوجتي بعد انتهاء الحديث وانتظرت تعليقها ، كان فمها مفتوحاً بالدهشة ومن عينيها تطل نظرات مذعورة تشبه نظرات طبيب حديث التخرج وهو يستمع لأحد المرضى بعقولهم . . . ثم تمالكت نفسها وقالت بخوف :

– سحاب إيه ونجوم إيه وحصان إيه . . . أنا بأكلمك إن الشتا جه وعايزين بطانيه لمحمد وكستور للولاد . . . هذه هي الزوجة المصرية . . . أحدثها في النجوم والسحاب والقيم الجمالية فتحدثني في البطاطين والكستور . . . ما هذا . . .

لماذا تفتقر الزوجة المصرية إلى الشاعرية ولا تفهم أن زوجها رجل يقدر الجمال ويحب الحديث عنه . على أي حال ، أحرجتني زوجتي بالحديث في المسائل المادية ، وهي مسائل لا تحظى من جانبي بغير الاحتقار والإهمال والتعالي ، وقررت بيني وبين نفسي ألا أحدث زوجتي بعد ذلك عن مشاعري الخاصة فذلك شيء لا تفهمه . وعادت زوجتي تقطع حبل أفكاري لتقول :

– انت معايا والا . . . لأ .

قلت بهدوء : أنا بقالي معاكي عشر سنين وجايه النهارده تسأليني أنا معاك والا . . . لأ .

قالت بهدوء أغاظني قليلا : انت حتزعل كل ما آجي أكلمك

فى البطانية والكستور . بلاش مش ضرورى. ممكن الولاد السنة دى يعيشوا من غير بطانية وكستور ، إنما عايزه أقول لك حاجه . . . الفلوس اللى استخسرتها فى البطانية والكستور حتدفع ضعفها للدكاتره . حتدفعها على أقساط للدكتور والأجزاخانة . يعنى الاتناشر جنيه المطلوبين دول هيبقوا تلاتين والا أربعين .

قلت بغضب وانهيار وتخاذل : ولا كلمة . حاجبهم لك أول الشهر . خلاص ، قالت بسرعة : أتناشر جنيه وجنيه كمان نجدد اللحافين بالمرة .

ثم نهضت واقفة وأشرق وجهها بشماتة الانتصار ، وانصرفت من الغرفة كعاصفة مدوية . ولم يلبث أن تعالى نشاطها من المطبخ والحمام وحجرة النوم وهى تأمر وتنهى وتهندس وتشرف وتراقب وتحقق وتشخط وتنطر . . .

وذكرتنى محاولاتها الساذجة برئيسى فى العمل ، إن علاقتى به تزداد انهياراً كل يوم ، فهو الآن لا يذكرنى جيداً ، وهو ينظر إلى كلما رآنى بدهشة غريبة كأنه يتساءل عمن يكون هذا الوجه المألوف .

ومددت يدى إلى التليفون ثانى يوم واتصلت بصديق السوء يوسف .

— أهلا يا يوسف ، أخبارك إيه : الحمد لله . لا أبداً ، كنت عايز أقول لك إيه ، ليه . . . موضوع بسيط ،سلفية بسيطة،اللى تقدر تدفعه، هو المطلوب خمستاشر جنيه شوف تقدر تجيب كام وبس ، خمسة ، اهو حاجه نسد بيها حنك السبع عشان يتلهى عنا .

وهكذا حلت المشكلة حلا جزئياً ، ورحت أفكر فى هذه الدنيا الغريبة التى لا يكف المرء فيها عن الاقتراض من اللحظة التى يولد فيها حتى اللحظة التى يذهب فيها . الطفل يقترض صدر أمه ، والصبى يقترض من أبيه ، والشاب يقترض من أصدقائه ، والموظف يقترض من زملائه ، والبنوك تقترض من البنوك ، والدول تقترض من الدول ، وكل شىء يمضى فى نظام غريب حكيم حتى ليمكن القول إن الإنسان حيوان مقترض ،

ليس الإنسان حيواناً ناطقاً لأن الببغاوات تنطق ، ليس حيواناً ضاحكاً لأن القرود تضحك . الإنسان حيوان مقترض ، ومع إبداء التحفظ على أن الإنسان حيوان نفضل استبدال الحكمة بهذه العبارة. الإنسان مخلوق مقترض. ولو بحثنا فى الدنيا كلها عن مخلوقات تقترض لما وجدنا غير الإنسان . والفيل مهما يكبر فى السن لا يميل على فيل صغير ويقول له :

ــ ألاقيش معاك بخمسين قرش ورق شجر لغاية بكره . . .

ذلك لا يحدث مطلقاً فى دنيا الحيوانات ، وعند ما يكبر الحيوان يكف عن النشاط ويجلس فى الشمس ولا يقترض من أحد ... وهذا هو السر أحياناً فى أن الغابة تبدو منظمة أكثر من عالم الإنسان؛ على أى حال... أعتقد أن الموضوع يستحق دراسة أكثر فهو موضوع شديد الحساسية والأفضل أن ندرسه تاريخياً .

الأحد : ١٤ نوفمبر سنة ١٩٦٥

عند ما يرى القط سمكة ينفش ذيله ويسيل لعابه، وعند ما يرى الكلب قطعة من العظم يهز ذيله بسرور وصداقة ، وعند ما يدق جرس التليفون لإنسان ما ، ويسمع صوتاً غاب عنه سنوات تقفز عشرات الصور إلى ذهنه فجأة ، وتمضى حركة الصور بالنبض والحياة ، وهذا التذكر شىء لا يستطيع الحيوان أن يفعله . وهذا هو الفرق بينى وبين القط الذى أربيه ، لا يستطيع القط أن يرفع سماعة التليفون ويقول :

ــ ماو . . . من الذى يتحدث (بالدهشة) أهلا . . . «ثم بالعتاب» عام كامل لا تتصلين فيه ، ماذا حدث« وبالغضب الرقيق» افتقدتك كثيراً فأين أنت، « ثم بالأمل الباهت» غداً فى الثانية عشرة ، سأكون هناك .

لكن غداً لا يجىء كما نعرف ، لا يستطيع القط مهما يكن مثقفاً أو ذكياً أن يضع سماعة التليفون ويستغرق بعدها فى التذكر ، وتمضى الصور طرية وحية ودافئة على ذهنه . فصل الخالق العظيم بين الإنسان

والقط ، ومنح الحيوان غريزة يمضي على هديها ، وأعطى الإنسان ذاكرة يرده إليها صوت ما أو رائحة ما أو عبارة ما . ومنذ أن دق جرس التليفون في مكتبي وأنا قلق ، كانت « س » هي التي تتحدث ، ونقل هذا السلك الجامد المغروز في الأرض صوتاً حمل معه دفقة تمتلئ بالصور ... وكانت كل الصور قد اصفرت والتوت أطرافها من فعل الزمن . لكن ملامح الوجوه فيها لم تكن جامدة باهته . ما أغرب الحب ، هل يزداد رسوخاً كلما طال عليه الأمد ؟ هل يحمل مثل الخمر الجيدة القديمة هذا الدوار والضعف . . . كانت « س » ، فتاة غريبة ، لم تكن تشبه أي فتاة على الأرض ، ثمة مناطق شاسعة من حياتها غارقة وسط الظلال ، واختفاؤها مفاجئ وغير مفهوم ،وبعد عامين تلتقي بها في الطريق الى جوار مكتبة لتقرأ في عينيها هذا الإحساس الذي يعانيه من كان يفتش — عبثاً — عن شيء ولم يجده .

ويفكر قيس وهو يمضي وسط مباني العاصمة الطوبية والحجرية والزجاجية المطفأة ، يفكر وهو يملأ رئتيه من عادم السيارات أنه وحيد وخائف ومستوحش ، وربما يختنق وسط جليد لا تستطيع الذكريات بكل أنفاسها الدافئة أن تذيبه . . . وربما تنتقل الجلسة إلى النيل ، وربما ينسى المرء أنه مكبل بثلاثة أطفال وزوجة وقط يربيه ، وأنه ملتزم بمظهر معين وابتسامة لا بد أن يعلقها على شفتيه وهو يلتقي بزوجته ، ربما ينسى المرء هذا كله ويشده سحر النيل وهدوء الليل وبريق النجوم ... لكن البرودة ستعيده الى صوابه وتذكره بأنه يقترب من الحلقة الرابعة . وأنه لم يعد شاباً طائشاً كما كان ، وأن الأولى به أن يضم أطراف ملابسه حتى لا يصاب بالبرد ويرقد . وليست الشيخوخة سناً معينة نصل إليها ، إنما هي إحساس معين نبلغه ، وأعتقد أنني قد بلغت هذا الشعور من زمن ، ولو حسبت في ذهني متى أحسست بالشيخوخة فسيصادف ذلك عاماً هو العام الذي يلي الزواج مباشرة ، وكان ذلك حين أنجبت ولدي الأول ،

يومها ملأنى إحساس بالوهن والخوار والشيخوخة . . . مبروك . لقد أصبحت أباً . . .

وبكيت يومها وظن الناس أنه الفرح ولم يتصوروا أنه الخوف . . . يا إلهى . . . إننى ما زلت أحس بعدم فهم عميق لكل ما يحدث أمامى ، وهذا إحساس الأطفال ، وما زلت أترجم كل شىء فى مخيلتى إلى الألوان ،

وأنا لا أعرف هل أحب حقيقة عند ما أحب أم لا . . . ولشد ما أريد أن أعرف . ومنذ زمن بعيد وكل من يعرفنى يتهمنى بأننى لست طبيعياً وأننى أقرب إلى الجنون منى إلى العقل . وعندما أقع فى الحب أشبه على الفور جبلا وقع فى بئر ، وربما بدا منظر الجبل وهو يحاول الدخول من فتحة البئر مضحكاً.وهكذا أبدو وأنا أحاول اقتحام الدنيا المسحورة للحب . وعندما أحب يصيبنى اهتمام مفاجىء بمن أحب فأسرف فى سؤاله عن صحته ونفسه وحاله ، حتى ليبدو السؤال المكرر نوعاً من البلاهة ، وأحياناً يأخذحبى شكل حنان مفاجئ أو قسوة مفاجئة مبعثهاهو الخوف ، الخوف من أن نفقد حبنا ذات يوم أو يقع الحب منا بلا ضجةمثل معطف يقع من المشجب . وكثيراً ما أحس أن سلوكى مع الحب يتغير ، وقديماً أحببت ابنة خالتى وكنت أيامها أخاف عليها من الآخرين والعيون والموج والهواء والشمس، وعذبتها كثيراً فقد كنت أريد منها أن تتصرف مثل سانت تريز ، وكنت أغار حين أرى أكمام الفستان قصيرة . . وقالت لى يوماً وهى تثنى رأسها جهة اليسار .

ــ أنا قرفت خلاص .

كان معها كل الحق . .

وتراجعت خطوة إلى الوراء ولم أعرف بماذا أرد ، وفكرت سريعاً فى أبطال السينما وكيف يواجهون مثل هذا الموقف ، إنهم لا يتفاهمون وإنما يرفعون أيديهم ويهوون بها على وجه الحبيبة ، ولم أفعل ذلك واكتفيت بأن استدرت خارجاً من حياتها . كانت كلمتها هى الستار الذى نزل ببطء على

قصة حب عظيم لأنه فاشل ، وفاشل لأنه عظيم ، قصة حب فتى فى العشرين من عمره مع فتاة فى الثالثة عشرة : حب لم يكن موضوعه هو الحبيبة بقدر ما كان موضوعه هو البراءة والطهر ، وكبر فتى العشرين وعبر عامه الثلاثين ، وكبر أكثر وغداً يجيء عامه الثالث والثلاثون . . . غداً عيد ميلادى الثالث والثلاثون . . . مرت ثلاثة عشر عاماً على كلمتها التى قالتها وهى فى الثالثة عشرة .

الأحد : ٢١ نوفمبر سنة ١٩٦٥

نحن نعيش فوق كرة ضخمة من الماء والجبال والصحارى والحقول وتشرق علينا شمس كروية كل صباح، ويجيء القمر كروياً إذا جاء المساء، ويحمل الرجال رؤوساً تشبه الكرات ، وتظل البنات فى رشاقة عيدان القصب، فإذا ظهرت كرتان على صدر البنت اهتم الرجال بهذه الظاهرة وبدأوا يعدون العدة للزواج ، وتأثراً بهذا الشكل الكروى المنتشر فى الكون نشأت لعبة الكرة واستفحلت اهتمامات الناس الكروية .

وأنا أسكن فى بيت يقع أمام مقهى رجل من مشجعى الأهلى، وعند ما ينتصر الأهلى يحضر الرجل مزيكة حسب الله ويحضر عربة من عربات الكارو ويركب فوقها ويبدأ الرقص البلدى ، ويجمع الموكب حوله المئات وهم يهزجون ويغنون ويترقصون ويلعبون بكرات من السباب المضحك الموجه للنادى الآخر ، فإذا كان الزمالك هو المنتصر استأجر أحد أصحاب الجراجات نفس المزيكة التى يستأجرها الغريم بنفس العربة الكارو ونهض معه المئات من مشجعى الزمالك وطافوا بالحى كله وهم يهزجون ويغنون ويترقصون ويلعبون بكرات من السباب المضحك الموجه للنادى الآخر ، وفى كلتا الحالتين يتعلم أبنائى الصغار شتائم لم أعرفها إلا بعد أن وصل عمرى الثلاثين .

ويشجع أبى نادى الزمالك ، وتنتمى زوجتى بولائها إلى النادى الأهلى

وأحد أبنائى يريد أن يكون سائقاً للقطار عند ما يكبر . ولهذا السبب يؤيد نادى السكة الحديد . رغم أننى أفهمته عدم وجوب كونه سائقاً للقطار وكونه مشجعاً للسكة الحديد ، إلا أنه رفض أن يفهم . وتعدد المذاهب والاتجاهات فى بيت واحد دليل على الديموقراطية والخصوبة .

ولقد أحسست أننى مدفوع بعاطفتى ضد النادى الأهلى لأن زوجتى تشجعه ، ثم أقنعت نفسى بأننى يجب ألا أسمح للمسائل الشخصية بالتدخل فى موضوع له هذه الأهمية والعمومية . والحقيقة أن الظروف تلجئنى إلى اتخاذ موقف الموافق من أبى وزوجتى وولدى ، فأنا أحدث أبى أن الزمالك هو السيد الكروى المفضال ، وأقول لزوجتى : إن الأهلى غالب حتى لو انغلب ، أما ولدى الذى رفض كل المناصب التى عرضتها عليه وأبى إلا أن يكون سائقاً للقطار فأنا معه من مشجعى السكة الحديد .

وأنا رجل رصين ولا أفهم كيف ينتتر أبى واقفاً وسط الصالة ويزعق :

— حوش الجون . . . حوش الجون . . . يا خسارة ماجاش جون .

ساعتها لا أفهم هل كان أبى خائفاً من مجيء الجون أو راغباً فى مجيئه ، ولقد تحمست ذات يوم وقلت شيئاً تصورت أنه سيعجب الجالسين حولى ، ثم فوجئت باستيائهم جميعاً ، وليس أكثر إشعاراً بالخجل من أن نحاول أن نحمل الفرح فنجيء بالغم بدله . ولقد أنقذنى عدم اهتمامى ، أو « غبائى » فى الكرة بمعنى أصح من مواقف مثيرة وقفتها زوجتى مع أبى يوم الجمعة الماضى ، وأحدهما زملكاوى والثانى أهلاوى ، وثمة مباراة بين الأهلى والزمالك . وفى البداية التقى أبى بزوجتى لقاء مثلجاً ، برغم القبلات التقليدية التى تبادلاها على الخد ، ثم قال أبى ونحن نأكل شيئاً عن رغبته فى هزيمة الأهلى لأسباب زملكاوية بحت ، وقالت وزجتى بعد أن تلقت الصفعة إنها تود أن يهزم الزمالك وساقت أسباباً أهلاوية بحتاً .

وضحك أبى ضحكة قصيرة ، واصفر الجو بين الغريمين ، وبدا

واضحاً أن الكرة وحدها هى محور الصراع الدرامى ، والتفت أبى إلى كأنه يقول : انظر وقاحة زوجتك ، والتفتت زوجتى كأنها تقول ألا يكفيك أن أتحملك حتى أتحمل والدك . . . ودفنت وجهى فى طبق المحشى وخطبت خطبة قصيرة عن الروح الرياضية ومستقبل الكرة والاهتمام بالمستوى وتشجيع الناشئة ورعاية العتاويل والبر بالعناتيل ووجوب حيدة الحكم . وكانت الكلمة القصيرة محاولة للهروب من الموقف الذى كان مطلوباً منى أن آخذ منه موقفاً . قال أبى معلقاً على تصرفى :

ـــ طول عمره مالوش رأى . . . سلبى . . .

والتفت إلى أمى مستنجداً بها ، فنهضت قائمة ومدت يدها إلى طبق الفراخ المصرية الجليلة وبدأت تقسيم الأنصبة وهى تتحدث عن وجوب احترام الطعام ما دمنا على مائدة الطعام ، وتراجع أبى وطلب كوباً من الماء ، كما تراجعت زوجتى وقالت لأمى رأيها فى الأرز المخلوط وروعته . وكانت كلمتها نفاقاً بحتاً لأنها تقول لى فى البيت عند ما نعود إنها لا تفهم كيف أستسيغ طعام أمى الذى يمرضها لفرط دسامته ، وهكذا تمضى الحياة بالنفاق أو الخناق أو الهرب ، والسبب هو الكرة . وأنا رجل عاقل ولا أفهم السر فى كل هذا الضجيج .

آه من الضجيج الذى ينبعث من المطبخ .

الأحد : ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٥

يعتقد الكثيرون أن الزواج دليل على التهور ، ويرى بعض الناس أنه دليل على الشجاعة ، والفروق بين الشجاعة والتهور رفيعة وناعمة ، ولهذا أفضل النظر للزواج نظرة أخرى . وفى رأيى أن الزواج دليل على النهاية ، وعند ما يتزوج المرء يشيخ ، وعند ما يشيخ الرجل يكبر أولاده . ويتزوجون ، وهكذا تتشقق ثمرة البسلة ويذهب الغلاف للريح وتبقى أصغر الثمار فى الأرض وتمضى دورة الحياة .

وقبل الزواج لا يفكر الرجل إلا فى صيده من الطعام والشراب واللباس والمرأة ، ووسط دائرة الأنانية تنمو شجرة الحب . . . وهى نبات غريب أوراقه عريضة وشفافة وخضراء ، وفى نفس الوقت لا تؤكل لأنها نبات سام كل فائدتها هو الظل ، وهى تصنع ظلا ساحراً تنفذ منذ أشعة الشمس بعد أن تفقد حدتها الصفراء وتتحول تحت الأوراق إلى طيف ملون ، وكلما بكى العاشقان أو زاد شحوب وجهيهما زادت قدرة الشجرة وكبرت أوراقها . . . وكل شىء تحت شجرة الحب ملون ويشبه الحلم ، والقانون الوحيد السائد هو قانون النسبية والتسامح ، وهكذا يبدو أنف الحبيبة الكبير فى صغر النبقة ، ويتغير طعم شفتيها « رغم أنه بلا طعم » إلى مزيج من الكريز والتفاح ، وتحت شجرة الحب تغمض الحقيقة عينيها ويفتح الخداع الجميل فمه ويتحدث فيما يعنيه وما لا يعنيه وتسمع الجوارح لقوله وتصفق . . .

وبرغم أن الخطر يحيط بالمنطقة إلا أنها من المناطق الهامة التى ينبغى على النوع الإنسانى زيارتها ولو مرة واحدة طوال الحياة ، وليس المهم أن يحدث الزواج هذه المرة ... المهم هو الزيارة . ويدخل الكثيرون منا هذه المنطقة على بداية الشباب ، ويدخل تحت الشجرة أنيقاً رشيقاً يعتز بكبريائه ، ثم يخرج منها شاحباً باكياً وقد فك رباط عنقه وشرخ قلبه وانكسر طبعه ورقت حواسه وزادت نسبة الأمطار فى عينيه ، وبرغم كل هذه الكسور الداخلية والجروح تصنع الزيارة خيراً هائلا للإنسان . ومثلما نحقن أنفسنا بجراثيم الجدرى حتى لا نصاب بالمرض ، فكذلك تحقننا الرحمة الخافية فى الحياة بشىء من الحب والخيال كى يتم تطعيمنا ضد الحب والخيال فيما بعد . وهكذا نقترب من الأرض أكثر ونفكر فى الزواج ونتزوج ، ونحن مدينون للحب بخروجنا من سجننا القديم فى ظهر آدم ، ولولا الحب الذى عرفه آدم بعد عصيانه لظللنا حتى اليوم سجناء خلية واحدة ولما خرجت للحياة كل هذه الأشعار والمسرحيات وكتب الفن

والتماثيل والصور ... وهكذا صنع الحب أول مخلوق وصارت رحلة الحب هى سياحة كل مخلوق بعد ذلك . فالحب كمنطقة سياحية ينبغى على الوطنيين زيارتها ولو فى العمر مرة واحدة . وأنا أذكر أول زيارتى للحب وأعيش هذه الأيام فى الزيارة الأخيرة فما أعجب قلب الإنسان وما أغربه ، يستهوينا الجمال فى بداية الحياة ثم تكشف الحياة النقاب عن وجه الحقيقة فإذا هى والجمال اثنان وليس واحداً . ليست المرأة الجميلة هى المرأة الحقيقية دائماً ، وفى الجمال غرور يدير رؤوس الحمقى ولا يقنع الرجال ، ونحن نبدأ حياتنا السياحية مع الحب بأن نحب مدرسة الرسم الجميلة ، وكل مدرسة رسم لا بد أن تكون جميلة ، ثم نكبر ونحب ابنة الجيران ، ونخطبها من شقيقها الذى يلعب معنا ، ونتسامح معه فى عدد الأجوان التى أصابته من أجل عينيها . ثم نكبر أكثر ونحب فتاة من الجامعة ، ونكبر أكثر ونحب أول فتاة تعين معنا فى المصلحة . ثم نسأم من أكل المطاعم وجلسات القهوة ونحب امرأة لا نعلم أنها ستصبح زوجتنا ، ولو علمنا الحقيقة لما أحببناها قط و لجرينا من طريقها بسرعة الضوء ... (١٨٦ ألف ميل فى الثانية) وبعد الزواج نكبر فجأة ونبحث عن الجمال الداخلى وتناسق الشخصية ، وهذا الحوار اللطيف الناعم الذى تتحمل مصلحة التليفونات معظم ثقله . . .

والحب معركة بين رجل وامرأة . . . ومثلما تحمل المعارك كثيراً من المفاجآت للمتحاربين فكذلك تحمل معركة الحب ، ويكتشف الرجل أن هذا الوجه العادى قد راح يقطر نوعاً من الفتنة المسحورة داخله ، يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر . . . حتى يجىء الوقت وينعقد لسان الشاطر حسن . والفرق بين الزواج والحب وكلاهما معركة ، أننا نقود المعركة بالزواج ضد المرأة ، أما فى الحب فنخوض معارك وهمية ، تقف فيها المرأة إلى جانبنا ، ولا تفعل شيئاً سوى إيقاظ المحارب داخل الرجل .

ولقد استيقظ المحارب داخلى ووقف وسط صحراء شاسعة يفتش عن

جنوده لدخول معركته الأخيرة . . . وأنا أحس أن إمكانياتى التى تتمثل فى شكل جنود . أحس أن هذه الإمكانيات هائلة ، وأحياناً أتصور نفسى وتحت إمرتى مليون من الجند ، يحمل كل واحد منهم قنبلة ذرية . هم قوة هائلة لكنهم جميعاً موزعون فى الصحراء وقد فقدوا كل أجهزة الاتصال اللاسلكى ونفد الماء منهم أو كاد ، وأصبح كل واحد منهم لا يساوى أكثر من جرعة ماء . . . قوة هائلة ومشتتة ومعزولة تحاصرها الرمال ، هذه هى إمكانياتى ، وهى إمكانيات إذا استخدمتها فى الحب أو الحرب فهذا معناه أننى سأخسر المعركة . . .

الأحد ٩ يناير سنة ١٩٦٦ (الموافق لشهر رمضان)

« كل ما فاتك من الله سوى الله يسير . . . وكل حظ لك من الله سوى الله قليل » .

أنطق الله سبحانه وتعالى عبده المتصوف أبا سعيد الخدرى بهذه الحكمة ، وهى حكمة لا يدركها الناس جيداً على الأرض وإن كانوا سيلتقون بها بعد عمر طويل .

إن كلمة « بعد عمر طويل » هى التى تشغل تفكيرى هذه الأيام . . . أعرف أننى سأموت ، ومن رحمة الله أننى أجهل متى يكون ذلك وكيف . . أيضاً لا أعرف ما الذى سأعمله بعد أن أموت ، وهل أصبح شجرة يجلس العشاق تحت ظلها ، أو أتحول إلى ثمرة تأكلها بقرة فيزيد اتساع عينيها ويعمق تعبير الحزن فيهما . كل ما أعرفه وأثق فيه أننى سأتحول إلى التراب الذى عشت طوال حياتى أحارب دخوله إلى البيت وأصرخ فى وجه زوجتى لأنها لا تنظفه ، وهذه الهزيمة المروعة أمام التراب بتحولى إليه لن تستمر . . . وهذا ما يخفف وقعها على النفس . فبعد عدة بلايين من السنين ، أو بعد ساعة أو ثوان قليلة سأقفز من حفرتى بالأمر ، وأتحول من التراب إلى آدميتى بنفس الأمر ، وأسرع إلى الله تعالى (بالخوف

والقهر) ملبياً نداءه سبحانه ، وأنا الذى كان يسمع فى الدنيا (بالأمن والطمأنينة) نداء الله خمس مرات فى اليوم « فيستنطع » أشد النطاعة وأعظمها ويشد على نفسه لحاف الغفلة ويتعلل بعفو الله وبرد الشتاء وحر الصيف ولا يصلى . ولسوف أكتشف بالروع والخوف والإلحام وأنا أقطع طريقى إلى الله بعد البعث ؛ أن كل ما فاتنى من الله سوى الله يسير ، وأن كل حظ كان لى على الأرض سوى الله سبحانه قليل . . . ولسوف أعطى كتاباً صغيراً هو فيلم لحياتى على الأرض . . .

سأرى فيه لحظة الميلاد وأيام النمو وساعات المدرسة وحبى الأول وإثمى الأخير ، وكل حركة وكل نأمة وكل فكرة عبرت على الذهن ، وكل رعشة مرت بالحواس . . . حتى هواجس الفكر وخطرات الضمير وتأملات القلب ونوايا النفس سأراها مسجلة فيه بالصوت والصورة . وتمضى اللحظات وأنا أنظر دهشاً فى حياتى ، وأنظر دهشاً لهذا الميزان الرهيب الدقيق الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . . .

حتى هذه الجلسة فى المقهى . . .

اليوم الذى اشترينا فيه السمك وجلسنا نأكله وجاء القط الصغير الأصفر يشد بنطلونى فآلمتنى أظافره ورفسته بقدمى فأسرع يبتعد ثم ثنى وجهه إلى وقال يومها بغير أن أفهم عنه : « لماذا تضربنى أيها الرجل الطيب . . . هذه نقود جاءتك من الله ، وهذا سمك خلقه الله وأنت عالة على الله وأنا مثلك عالة على الله . فلم لا تطعمنى مما أطعمك الله » . . . نظرات القط الصغير الأصفر المرقش بالسواد مع ما قاله ولم أفهمه مسجلة فى الكتاب ومحسوبة وموزونة ، فيا لدوار الإثم . ومن ذا الذى يعيدنى إلى الأرض مرة أخرى لأطعمه وأقبل قدميه وأغسلهما بالدمع وأرجو منه أن يسأل ربه وربى ورب الكائنات عفوه ورحمته .

سيقال لى وأنا أتصفح شريط حياتى على الأرض : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . . .

لن يحاسبك أحد . . . اقرأ أنت وحاسب نفسك . . . ولو فاجأني الكتاب . . . وحاصرتني الخطايا التي اكتسبتها وأطلت النار وقررت أن أكذب ، فسوف يغلق الكتاب رغم أنفي ويعقد لساني بالخوف من رب العرش العظيم وتنطق قدمي قائلة : إنه سار بي إلى الخطيئة مرات ولم يدخل بيتك يا رب في غير الأعياد والمناسبات الرسمية . وتصمت القدم ، وتقول اليد : إنه كان يشرب بي الشاي في عمله ولا ينتج مدعياً أنه يعمل على قدر نقود الحكومة ، وتصمت اليد وتهمس حبة العين السوداء بسر النظرات التي قبل بها وجوه النساء في الطريق وتأمل بها السحاب المسخر بين السماء والأرض في نفس الوقت بغير خوف من خالقه . . .

وتصمت الجوارح وتعود إلى اللسان انطلاقته فيقول بعد أن أدانته الجوارح :

— « جاتكو البلا » . . . عنكم كنت أدافع يا أغبى الجوارح .

لا مفر إذن ولا فكاك ولا كذب ولا ظلم . . . لا ظلم اليوم . . . أى مفاجأة وأنا أكتشف أن حياتي على الأرض لم تكن هى وحدها الحياة . . . أى مفاجأة . إن كل نكتة أطلقتها على فكرة البعث بعد الموت ذهبت بالصدى وأبقت لى الحسرة يوم الحسرة ، فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . . .

يا حسرة على العباد ، ويا حسرة على نفسى . . .

الأحد : ١٦ يناير سنة ١٩٦٦ (الموافق لشهر رمضان)

الحقيقة أن زوجتي ... تمثل الغالبية العظمى من العامة الذين ينظرون إلى الدين نظرتهم لشيء يستحسن اتباعه عند الشيخوخة ليدفئ من برد الوحدة ويملأ الخوف من الموت بأحلام الجنة المنعشة . . . وينقسم معظم الناس إزاء الحقيقة الدينية « وكل حقيقة غيرها » إلى قسمين : قسم من العامة وقسم من الخاصة . فأما العامة فيؤمنون بالله على طريقة المثل

العامى الذى يقول إن خير الأمور الوسط ، وإن كان البيت عايز الزيت يحرم على الجامع ، بمعنى أن الإنسان إذا صلى وجب عليه أن يخطف صلاته خطفاً حتى لا يقال إنه انجذب ، وليفكر جيداً أثناء الصلاة فى علبة الجبنة المغلقة التى غشها البائع الحرامى ، وإذا صام بالنهار وجب عليه أن يسب الدين مرتين لأنه صائم ومنرفز ، فإذا انطلق مدفع الإفطار انطلق كالمدفع على الإفطار ، وثبت مراكزه عند هذه التبة من الأرز المخلوط ، ثم انحدر عنها لهذه الهيئة الحاكمة من الدجاج ، ثم تقدم من بعدها ليسيطر على أحراش السلطة والطبيخ . ثم طهر الأرض من الكنافة والأطايف ، حتى إذا انتهت المعركة صار التنفس معجزة . . . ويحتاج البطل لمن يحمله ويغسل له يديه . . . وإذا تصدق الواحد منهم تصور وهو يعطى قرشاً أو نصف قرش ويوبخ الشحاذ ويلقنه درساً فى وجوب البحث عن عمل ، تصور أنه يشترى نصف الجنة بالتعريفة المخروم الماسح الصدئ الذى يرجع عصره التاريخى للسلطان حسين .

وهكذا تمضى الأمور باعتدال وقصد حكيمين بميزان حياة العامة فيما يتصل بالدين ، وينصرف حماسهم الحقيقى وتطرفهم وجنونهم إلى الدنيا فيحاولون زيادة دخلهم فيها ، معتقدين أن الإنسان قد خلق أساساً وهبط إلى الأرض أساساً ليزيد من دخله ويشترى ثلاجة حتى يسجل تطوراً فى سلم الخليقة ، بعد أن كان جده الأول يفتح فمه تحت المطر ، وجاء جده الثانى وشرب من الترعة ، ثم اخترع جده الثالث القلة ، وصار لزاماً على الرابع أن يسجل هدف الثلاجة . ومثلما ينصرف هم العامة إلى زيادة دخلهم ينصرف همهم إلى تسمين أنفسهم معتقدين أن الكرش الضخم دليل على الأصل الطيب . وكذلك يؤمن العامة أن مروءة المرء لا تكتمل إلا إذا تعصب وانجذب لشىء عصرى مثل أم كلثوم أو الكرة . وإذا انهزم ناديه يوماً قفز المهزوم العصرى على قدميه وشوح بيديه فى الفضاء وأمسك صدره بالألم وصرخ من عزم أعماقه حسرة على الجون

الرابع الذى جاء ولم يكن ينبغى أن يجىء . ثم طب ساكتاً بالزعل ومات . وتسرع الصحف وفراودة النادى الذى تسبب فى موته ليتأملوا بالدهشة والخوف هذا الذى سقط شهيد رابعة الكروية . هذا هو موقف العامة أو الطبقة الوسطى من الدين . أما الخاصة فيقفون موقفاً آخر تماماً . . . لن نجد فيهم هذا الاندفاع الحماسى والسوقية . . . لن نجد فيهم هذا الإيمان الذى يشبه عدمه والذى يميز إيمان العامة . . . إن الخاصة قوم لا يتبعون غرائزهم كالعامة ولا يتقاتلون لأسباب كلثومية أو وهابية أو كروية . إنهم قوم يعبدون العقل وقد كفل وجودهم على رأس الحياة تربية ممتازة صانتهم عن الحماس لأى شىء . ولهذا يعتذرون لقضية الإيمان حين تعرض عليهم قائلين :

ـــ نريد أن نرى الله لنؤمن به . . . أيها السادة الذين يدعون وجوده ، أين هو وسوف نؤمن به . إن العلم هو هدفنا النهائى . . . والعلم هو الملاحظة والتجربة ، وكل ما يدخل المعمل يدخل ضمن إيماننا ، أما أن تطلقوا لنا ألفاظاً هى فى نهاية الأمر أصوات بغير أجساد فذلك ما نرفضه ومعذرة . . . ويلقون قفازاتهم فى وجه طاحونة الهواء وينحنون ثم ينسحبون بالأدب اللائق بالخاصة . . .

والحقيقة أن العامة والخاصة سجناء وإن اختلفت قضبان سجنهم : الأولون تسجنهم التقاليد والعادات التى كانت تؤمن بالدين كنوع من أنواع المدافىء التى تقى برد الشيخوخة. ويظل أحدهم مصالحاً للدين ما دام التعريفة المخروم يشترى الجنة . . .

والآخرون تسجنهم قضبان عقل طفل صغير هو العلم ... طفل صغير لا يؤمن بغير حواسه ولا يؤمن إلا بما يدخل معمله الذى يحمل بالنسبة للكون سعة فنجان القهوة ، فإذا رفض المحيط أن يدخل فنجان القهوة أنكرنا وجود المحيط كله وأعطينا الإيمان ظهرنا وانصرفنا .

الأحد : ٢٣ يناير سنة ١٩٦٦

نحس بالوقت فى مصر على طريقتنا الخاصة. إذا قال المكوجى سأحضر القميص بعد ساعة فعليك أن تنتظر القميص بعد يوم ، وإذا قال الترزى بأن البروفة بعد أسبوع — فهذا معناه أنها ستكون جاهزة بعد شهر ، والأصدقاء يتواعدون على اللقاء فى المقهى فى الساعة السابعة ولا يجتمع شملهم قبل التاسعة ، ولا يعتذر منهم أحد . . . والزوجة تعلم أن زوجها يحب أن يأكل طعامه فى الثانية والنصف ظهراً ، لكن الطعام « اللعنة على البوتاجاز الصغير » لن ينضج قبل الرابعة . . . فإذا اعترض الزوج ، قالت الزوجه : ما ناقصش إلا أحط صوابعي تحت الحلة . ولقد تميزت الشخصية المصرية بهذا التسويف الذى ينطوى على احتقار عظيم للوقت ، وينطوى فى نفس الوقت على عدم احترام لعمل الإنسان أو شعور الآخرين .

ومن الغريب أن يتصرف المصريون هكذا رغم أن أجدادهم القدماء هم الذين اخترعوا الوقت ، وإذا كنت أعتبر نفسى من قدماء المصريين فإن زوجتى لا تعتبر نفسها كذلك ، إنها تمت لعصرنا الذى يحمل مناخاً غريباً يدفع الإنسان إلى أن يصبح مثل كلمات العهد القديم ، فينظر للشمس ويعجب من علة نشاطها ، وينظر للأنهار ويدهش لأنها لم تمل و تتعب من الذهاب للبحر طوال هذه السنوات ، ولو نظرنا حولنا فى الكون فسوف نكتشف أن الإنسان هو أكسل المخلوقات وأقلها تحملا للمسئولية ، لم نسمع أبداً أن الشمس تأخرت عن موعدها ثلاث ساعات أو ثلاث دقائق ، لم نسمع أن المغرب تلكأ أو تسكع قليلا ولم يأت فى موعده ، لم نر أبداً فاكهة تتأخر عن موعد ظهورها ويمنعها الكسل من الظهور ... كل شيء يمضى بنظام رائع محكم باستثناء الإنسان ... هو الوحيد الذى لا يراعى الوقت ، وبالتحديد وقت طلب النقود .

منذ يوم طلبت زوجتى سبعة جنيهات ونصف ... لم أكن قد قبضت

بعد ، ودهشت .. كيف تتصور زوجتى أننى يمكن أن أملك على نهاية الشهر مثل هذه الكمية من النقود ، هل أنا أرسين لوبين . أفهمتها أننى لا أملك هذا المبلغ فقطبت جبينها وقالت :

— راح الهليوس . . .

قلت : راح فين . . .

قالت : نافده الصبر : اسكت . . . سيبنى أفكر . أطعت الأمر على الفور . . . تركتها تفكر . . . وتغضن وجهها وراحت تفكر . . . واستغرقت أنا الآخر فى تفكير عميق محاولا أن أعرف سر الهليوس . . . وعرفت كل شىء فى المقهى . . .

أن الهليوس نوع من أنواع السمن الهولندى . . . وإذا كان كل عصر يمتاز بنوع من أنواع الجنون الظريف الذى يميز الحياة فيه ، فإن هذه الأيام من عصرنا تعيش فى جنون الهليوس . . .

وانتشر الهليوس مثلما تنتشر الأنفلونزا ولم يعد هناك بيت لا يتحدث عنه ، وصارت كل زوجة تقيس نفوذ زوجها ومدى حبه لها بعدد العلب التى يحضرها من الهليوس . وكانت زوجتى تنوى شراء عشر علب منه مرة واحدة ، وكانت هناك — واسطة — ستجىء لها بهذه العلب ، وكان الدور المفروض أن ألعبه هو دور إحضار النقود . . . ولما كنت رجلا صالحاً لا أسرق فإننى لم أستطع أن أحضر النقود ، وهكذا غرق حبى لزوجتى فى عشر علب من الهليوس التى فشلت فى إحضار ثمنها . ومع مرور الوقت لم أكن أسمع إلا ثناء عطراً على هذا السمن . . . والحقيقة أننى أفكر جدياً هذه الأيام فى كتابة ملحمة عن الهليوس ، أو مسرحية . . . سيفتح الستار على بداية أزمة . . . علبة من الهليوس التى اختفت فى بيت . . . والزوجة تتهم زوجها بأنه حمل العلبة إلى بيت والدته ، وهو يتهمها بأنها حملتها لبيت أمها . . . ما أسخف كل شىء . . . ما أسخف هذا الاندفاع الأحمق نحو نوع من أنواع السمن . هناك فى البلد غيره عشرات الأنواع

التى لا تقل عنه وإن كانت شهرتها ـ والشهرة حظوظ ـ أقل من شهرته ـ ولماذا عشر علب يا زوجتى العاقلة ؟ .

قالت الزوجة : «ستكتر عشر علب علينا . . . أملك جايبه هليوس بعشرين جنيه . . . أصله حيختنى . . .

سكت وحاولت أن أفكر فى الموضوع بهدوء . . . طبعاً سيختفى الهليوس . لأن كل بيت سيبدأ تخزينه . . . قطعاً سيختفى . . . عليه اللعنة . . . اتصلت بأمى فى التليفون أسألها هل تنوى أن تفتح محلا للبقالة ففوجئت بأنها لم تشتر علبة واحدة منه ورجتنى أن أتصل بزوج خالة شقيق ابن عم الست تفيده لأن له قريباً يعمل فى الجمعية التعاونية ويمكن أن يحضر لنا علبة أو علبتين . ما هذا . . . أيمكن أن يكون جنون الهليوس قد أصاب حتى السيدات العاقلات . . . لست أعرف . . . هل يمكن أن يكون العيد هو المسئول عن الأزمة ؟ لست أعرف . . . كل ما أعرفه أننى قررت أن أعيد قراءة كلمات سيدنا سليمان التى يقول فيها : « باطل الأباطيل ، الكل باطل » يا سيدنا سليمان عليك الرحمة والصلاة . على عصرك كان كل شىء يتساوى . . . وعلى عصرنا زادت أشياء تحت الشمس . . . أهمها يا نبى الله هو الهليوس قيصر . . . تصور ! .

الأحد : ٣٠ يناير سنة ١٩٦٦

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم بأمر فيه تجديد

تذكرت هذه الكلمات وأنا أقول لألف واحد كل سنة وأنت طيب ، وألف واحد يقولون لى كل سنة وأنا طيب .

ذهبت إلى حديقة الحيوان وكدت أبكى أمام قفص الأسد . . ترى كيف يمضى العيد فى الغابة.هل يأكل الأسد غزالتين بدلا من غزالة واحدة إذا جاء العيد عليه فى الغابة ، ثم ما هو إحساسه اليوم وهو سيد حيوانات الغابة . . ما هو إحساسه اليوم وهو سجين .

الأحد : ١٣ فبراير سنة ١٩٦٦

بلغ الأمر حد الأحلام . . .

أصبحت أحلم وأنا نائم وأحلم وأنا مستيقظ وأحلم وأنا أسير وأحلم خلال العمل . أعتقد أن هذه الحال تعترى الزواج عند ما يبلغ عامه العاشر ، لكنني لم أصل إلى عامى العاشر بعد . . . فما السر إذن ؟ أتكون المشكلة أنني أعيش حالة نفسية وصلت إلى عامها العاشر فى الزواج . . . لست أعرف ... كل ما أعرفه أننى أحس بالبرد والخوف وأحلم ... تعال أيها الحلم ولا يهمك الصوت العالى للزواج . . .

أنت بصوتك المهموس وأسرارك الغائرة أقوى وأمنع .

كيف حالك يا جدى . . . كيف أنت . . . أنا . . . أنا بخير . . . لم أزل هناك . . . فى الدنيا . . . أى دنيا . . .

تسألنى أى دنيا يا جدى ... الدنيا التى غادرتها بقطار الثلاثاء منذ عام مضى . . . ما أغرب كلماتى ... لم تعد تفهم كلماتى . . . ما الذى لا تفهمه . . . منذ عام مضى . . . هل نسيت أنك مت . . . هل فقد الزمن عندك دلالته ... أصار له معنى جديد يا جدى ... لم لا تجيب ... ثم ما سر ابتسامتك الشاحبة التى تذكرنى بشىء كان لى ثم مات . . . لن تفهم يا جدى فأنا أتحدث عن الحب وكنت تعتبر الحب شقاوة ثم غسلتك التوبة والبكاء هناك عند الحجر الأسود . . .

أحدثك إذن عن الحب . . . كان لى حب يا جدى ثم مات . . . تعرف أنت الموت وقد جربته . . . تعرف أنه رحلة . . . كيف كانت تبدو فى المرة الأخيرة .. . المجداف يتحرك على مياه الذكرى فيصيب الوجه رذاذ مياه غريبة ... ليست مياهاً زرقاء ولا خضراء وإنما تحمل لوناً تمتزج فيه الفضة بشحوب النرجس . . . والفضة سائل كثيف لا يشف عما تحته من أسرار ... لكن هذه المياه الفضية

شفافة . . . امتقع وجهى وأنا أنظر للمياه . . . ها هى المرة الأولى التى أشاهد فيها فضة شفافة . . . وعلى السطح تتناثر آلاف من زهور النرجس التى تمنح عطرها للجو . . . كان الجو حاراً حين شاهدتها آخر مرة . . . أذكر مجرى العرق الرفيع عند منابت الشعر فى رقبتها . . . وأذكر ابتسامتها التى لم تتحرك بها الشفتان وإن أطلت من العينين . . . وكانت تقول لى آلاف الأشياء بغير أن تتكلم ... وكنت – يا جدى – حين أنظر فى عينيها وأتأمل وجهها أحس بالأمان العظيم . . .

شعور مطلق بالأمان والسلام والراحة . . .

أراها مثلما كنت أراها زمان ، بأنفها الكبير الجميل مثل أنف كليوبترا . . بملامحها الذكية ، بدمها الذى يشبه خفه دم النسانيس التى تعيش على الشجر فى السودان .

احتفظ بصورتها . . بقصاقيص من فستان لها وعمرها ١٤ سنة ، احتفظ بقشر لب أكلته مرة وأعطتنى القشر لأرميه فلم أفعل . احتفظ بقلم صغير كتبت به يوماً كلمة . احتفظ بخصلة من شعرها قصصتها وهى نائمة جوار شقيقتى وكانت صديقتها . احتفظ بجزء من أظافرها إنكسر يوماً.

واحتفظ بصلواتى لها ، وهى صلوات تصل لألف صفحة ، لم تقرأها هى ولا تعرف بوجودها قط . أخبئ هذا كله عنها وعن زوجتى مثلما يخبئ الوثنى العاشق إلهه عن الآخرين .

وأحياناً تزورنى هى فى الحلم ، وأحياناً أزورها بالمرور على قشر اللب وقصاقيص الفستان وخصلة الشعر .

كانت تقول لى احتراماً – يا أبيه .

وكان الفرق بين عمرى وعمرها يبرر ذلك .

ذهب الأمس . مات . تحول . بدأ رحلته مع العودة . دخل الأرض

وصار معدناً من المعادن النفيسة . . . سجلت أيدى الملائكة كل شيء ولم يعد ممكناً محو شيء . . . رفعت الأقلام وجفت الصحف . . . ذهب الأمس فكم كنت أحبها مثلما أحب عمر بن الفارض المرأة الوحيدة التى قادته إلى الحقيقة . . . كم كنت أحبها حقاً . . . قبلها لم أكن أتصور وجود حكمة لخلق المرأة غير استمرار الحياة . . . كنت أقول لنفسى إنه يستحيل أن يكون هدف المرأة على الأرض هو تنغيص حياة الرجل والتنكيد عليه . . . يستحيل . . . لماذا خلقت النساء إذن . . .

بعدها هى عرفت لماذا خلقت كل النساء . . . إن الحب عنصر أصيل فى بناء هذا الكون وكانت تستمع إلى كثيراً — يا جدى — وهى صامتة . . .

* * *

معذرة يا جدى . الواقع يفرض نفسه فمعذرة .

— أنت تشوف لك حل فى البيت ده . . . اتصرف . . . ما أنت طول عمرك مديون . . . فى فبراير واحد من ولادك نايم من غير بطانية والثانى معندوش كستور ، واحد عنده جزمه والثانى معندوش . . . وتقول لى بتحب وعايز تتجوز واحده ثانيه . . . والنبى أنت عبيط يا بطاطس . . . فيه بنى آدم مفيش فى بيته غساله ، فيه بنى آدم مفيش عنده تلفزيون . . . هات تليفون يدال ما تجيب ولد . . . كل الرجاله اللى فى الدنيا دول خراتيت ولا بيفهموا . . . أصل انت مش قادر تحس إن أنا مختلفة عن الناس . . . بس أنا بأفكر بطريقة ثانية غير الناس . . فاكرنى حزعل . حستريح . روح اتجوز وهات بلوة تهاتى فيك وتهاتى فيها . . . لا . . . انت ما كنتش بتهزر . أنا عارفاك لما تتكلم جد . . . أنا واخده بالى منك اليومين دول . إن مكنتش ملاحظ تبقى ضعيف الملاحظة . . . انت خسيت وعجزت وقربت تموت يا بطاطس . . . شعرك اتملى شيب وجاى تقول لى بحب . . . حبك برص . . . معذرة يا جدى فهذه هى زوجتى

فى إحدى لحظات الحوار . . . إنها طبعاً لا تقصد ما تقوله ، وكل ما فى الأمر أن العشرة الدائمة تولد نوعاً من أنواع رفع الكلفة . . . وذلك أسوأ ما فى الزواج . . . ذلك أسوأ ما فى الزواج . . .

الأحد : ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٦

* الساعة ٧ صباحاً :

النوم يرقد فوق جفونى كالرصاص . والسأم يخنق رباط عنقى بعد أن ضاقت ياقة القميص ، والمرآة تأكل باب البيت وأنا أمر فى طريقى للخروج .

* الساعة ٧ والدقيقة الثالثة :

حانت منى التفاتة إلى المرآة فوقفت . . . خيل إلى أن هناك رجلا غريباً فى البيت . نظرت خلفى فنظر الرجل فى المرآة خلفه ... تأكدت أن هذه صورتى فجمدت فى مكانى . كان الرجل الذى هو أنا يبدو متعباً ومكدوداً وعجوزاً وقد امتلأ رأسه بالشعيرات البيضاء ، وتحت العينين هالات سوداء وفى صفاء العينين كدر خفيف وشىء يشبه الحلم الذى انطفأ .

* الساعة ٧ والدقيقة الرابعة :

مرت زوجتى ورائى فمرت صورتها فى المرآة . لاحظت أنها مدججة باللحم والشحم والغباء ففهمت سر شيخوختى المبكرة وانصرفت .

* الساعة ٨ ونصف :

واحد شاى وسندوتش فول واشترى لنا الأهرام ، خلينا نقرأ ونبسط ولتذهب الدوسيهات المعطلة للجحيم .

* **الساعة ٩ ونصف :**

رئيسي يتحدث حديثاً طويلا فلا أسمع منه شيء .

الحياة مستمرة خارج المصلحة والبوفيه يعمل داخل المصلحة وآلاف الأشياء تقع فوق سطح الكرة الأرضية والصاروخ الروسي يرقد على سطح القمر والدنيا نهار هنا وليل هناك ، وهناك قشرة موز في مكان ما من الشارع الذي يؤدي إلى بيتنا ويمكن أن أتزحلق عليها وأنا عائد وتنكسر رقبتي وأموت . . . ما معنى هذا كله .

* **الساعة ١٢ :**

دق التليفون لي . . . من الذي سأل . صوت رجل . . . لا تردوا على أي صوت لرجل . هذا صوت دائن . . . قولوا أي شيء . . . خرج . . . مات . . . نقل . . . سافر . . . أي شيء . . . ما أنتظره أيها الأغبياء هو صوتها هي . . . وهي مسافرة في بلاد الفرنجة ولن تتحدث . أنا إذن لا انتظر شيئاً .

* **الساعة ٢ :**

أخذت نفساً عميقاً وغطست في الأوتوبيس . . . ما أذكاني . . . أعرف أنني لن أتنفس حتى أنزل منه . . .

الأحد : ٢٧ فبراير سنة ١٩٦٦

ليس غريباً أن تنشأ الصداقة بين الإنسان والحيوان . . . ليس هذا غريباً .

هرون الرشيد كان صديقاً لفيل . أما خمارويه بن أحمد ابن طولون أحد خلفاء الدولة الطولونية فكان مغرماً بالحيوانات

هو الآخر ، وكان له بستان مكانه الآن حى القلعة ، وكان له فى هذا البستان قصر جميل ، وحول هذا القصر بنى الخليفة دوراً متعددة للأسود والنمور والفهود والزرافات (بنى حديقة حيوان باختصار)، وكانت بيوت الأسود عامرة بالأسود ، ولها أوقات معلومة تفتح فيها ، فتخرج الأسود إلى فسحة عامة خصصت لها لتمشى فيها وتتريض وتلعب وتتهارش نهاراً كاملا ، حتى إذا حضرت صلاة العشاء صاح بها خدامها فيدخل كل أسد بيته لا يتخطاه إلى غيره . . .

وكان من جملة هذه السباع أسد أزرق العينين سماه خمارويه « زريق » نسبة إلى زرقة عينيه ، وكان هذا الأسد يأنس إلى خمارويه ولا يؤذى أحداً ، وأحبه خمارويه وعلق فى عنقه طوقاً من الذهب وأطلقه فى القصر . وعند ما ينصب خوان خمارويه وتعد مائدة الطعام كان الأسد يقبل ويربض بين يدى سيده . فيرمى إليه خمارويه الدجاجة بعد الدجاجة ، والفضلة الطيبة من الجدى ونحو ذلك مما على الخوان فيلتهمها . . . فإذا نام خمارويه يأتى زريق الأسد ويربض بين يدى السرير ، فما دام السلطان نائماً فلا يجسر أحد على الدنو منه وإزعاجه . لماذا نذهب بعيداً فى التاريخ . . . إن أحد الأباطرة المعاصرين يربى فى قصره أسدين كبيرين ويقدم السفراء أوراق اعتمادهم فى حضور الأسدين . . . وأنا لا أختلف عن هرون الرشيد وخمارويه وهيلاسلاسى . قد تختلف جنسياتنا ومرتباتنا وملامح وجوهنا لكننا معا نحن الأربعة ننحدر من أب واحد وأم واحدة ... آدم وحواء .

فكرت أن أربى فيلا فى البيت مثل هرون الرشيد لكننى استبعدت الفكرة . . . بيتنا صغير وزوجتى سمينة وليس فى البيت مكان لفيل آخر . أما الأسد فهذا هو الذى فكرت فى تربيته بجد ، حتى إذا نمت ربض بين يدى السرير ولم تجرؤ زوجتى على إزعاجى كل ساعة لتقول لى : هات تلاتة صاغ للمكوجى أحسن الواد متربس ومش راضى يمشى . سألت عن ثمن الأسد الصغير ... قيل لى إن ثمن الشبل بعد ولادته لا يزيد

على خمسين جنيهاً . . . عظيم . . . سعر لا بأس به مطلقاً . ويمكن عمل سلفة من البنك وشراء الأسد الصغير وتسميته زريق ووضع طوق من النحاس فى رقبته والاعتذار له لعدم وجود طوق من الذهب . عقبة واحدة حالت دون ذلك .

حكاية خوان خمارويه الذى كان زريق يلتهم منه الدجاجة تلو الدجاجة ، وورك الجدى تلو ورك الخروف . . . وتكرر هذا الخوان فى الإفطار والغداء والعشاء كل يوم . . . كانت هذه هى العقبة الوحيدة . ولنفرض أننى اشتريت أسداً صغيراً ونجحت فى تهريبه إلى الشقة وبدأت تربيته وكبر الأسد وتذكر الخوان الذى كان يأكل منه جده وتساءل عن خوانه الخاص . . . هنا المشكلة . . .

إن موضوع الدجاجة تلو الدجاجة شائك ومربك . . . إننا نجلس أنا وزوجتى وعيالى حول فرخة كانت تجرى فى السبق ، ولن يجد زريق غير عظام الدجاجة بعد تنظيفها جيداً من اللحم ... ماذا يقول الأسد لو حاولت إفهامه أن هناك ثلاثة أيام تحرم فيها الحكومة بيع اللحم . . . لنفرض أنه لم يفهم الحكمة الاقتصادية وراء هذا التصرف ومد يده فى يوم من الأيام الثلاثة إلى ورك واحد من عيالى وأكله . . .

فشلت فكرة تربية الأسد لضيق ذات الخوان ، مثلما فشلت فكرة صداقة الفيل لصغر حجم البيت ، ولم يبق غير القطط . . . إن القطط تشبه النمور على أى حال وتذكر المرء بعصر الصيد وأمجاده . . . وهى لا تزعج أحداً ولا تأكل كثيراً كالأسود أو الفيلة .

أى شىء فى هذه الرغبة . . . لماذا تتدخل زوجتى فى رغباتى . . . لماذا تصب كل نقمتها على القط الصغير . هل تفعل ذلك لأنه أحبنى وكان يختار حجرى وينام فيه دافناً رأسه الجميل وسط يديه . . . هل تحقد على القط لأنه أعطانى طاقة من الحب التى فشلت هى فى تقديمها . لست أعرف. كل ما أعرفه أننى فوجئت بموجة غريبة من العداء الذى يبدو

من زوجتي تجاه القط . . . وكان حجم زوجتي مقارناً بحجم القط هائلا ورهيباً . . . وكان القط حين أحضرته حائراً وخجلا وصغيراً وتحمل عيناه تعبير طفل ضل الطريق فى العرض . . . كيف أحضرته . . . أقول لكم كيف أحضرته .

كنت أصعد السلالم فى الظلام لأن الرجل صاحب البيت من يوم خفض إيجار الشقق خلع نور السلم نكاية فى السكان..وكنت عند الدور الثانى حين فاجأنى الصوت .

— ناو .

تراجعت إلى الخلف ومددت عينى فى الظلمة وتساءلت بصوت خشن :

— مين اللى بينونو هناك . . .

إن صداقتى بالقطط ترجع إلى أكثر من خمسة وعشرين عاماً حين أغلقت الباب فى بيتنا وأنا طفل على ذيل قط ، وشهدت عذابه وقررت التكفير عن ذنبى وتربية القطط مدى الحياة . . . عاد القط إلى المواء . . . وأنا لا أدعى أننى أعرف لغة القطط بكل قواعدها وأساليبها البلاغية وأدبها وفنها ، لكننى أستطيع التفاهم معها دائماً (وأفهم نصف كلامها على الأقل) . . . أخرجت علبة الكبريت من جيبى وأشعلت عوداً فتمزقت الظلمة عن القط . . . هناك . . . إلى جوار صفيحة الزبالة الفارغة كان قط رصاصى غامق يجلس مرتعشاً من البرد . . .

— قلت له : انت تبع أنهو بيت .

قال : ناو .

قلت : آه ...طب وإيه اللى مخرجك دلوقت .

قال : ناو .

— قلت : حتعمل إيه فى السقعه دى .

قال : عاو .

قلت : طيب تعال بات معايا الليلة دى والصباح رباح . . . نبقى نشوف أصحابك ونرجعك . . .

واندفع القط إلى قدمى وبدأ يتمسح فيها ... وهزنى الود والحنان الذى يقدمه وأنا رجل حرم من الود والحنان بعد زواجه . . . صعدت السلالم وأنا أتعثر فيه حتى وصلت إلى شقتنا فحملته ودخلت به البيت .

وسط الصالة كانت زوجتى تقف وتذكرنى بشمشون الجبار وهو يقف وسط المعبد الذى قدر له فيما بعد أن يهدمه على رأسه ورأس أعدائه... قالت وهى تشير إلى القط بكبرياء وصلف :

— إيه ده ؟

قلت : ده قط مسكين غلبان ، لقيته عا السلم تايه وجعان ، وكان بيترعش م البرد والحرمان ، والظاهر إنه قط لست أم إحسان ، اللى بعتتت لنا الكحك فى رمضان . . .

قالت بغضب : إنت حتحكى لى تاريخ حياته . . . أنا مش بسألك القط ده مين . أنا بسألك القط ده إيه .

قلت : قط .

قالت بنفس الصلف : إرميه بره .

قلت وأنا أرمى القط داخل حجرتى والدم يرتفع إلى رأسى وصوتى يزداد خشونة وغباء .

— أنا ملاحظ إنك بتتحدينى من أسبوع . . . إيه السر ؟ .

وارتفع صوتى وأنا أتساءل عن السر . . . ارتفع صوتى أكثر . . . وأكثر . . . وتراجع شمشون .

حقاً إن الطغاة لا يولدون طغاة ، إنما يصنعهم ضعف النعاج . . . وصدق الشاعر العربى فى قوله . . . وحيث لا قطيع لا ذئاب .

الأحد : ٦ مارس سنة ١٩٦٦

الفيلسوف اليونانى ديوجينيس يحمل مصباحه ويفتش عن الحقيقة تحت ضوء الشمس . . . دارون يحمل مصباحه ويتتبع التحويرات التى التى حدثت للمخلوقات نتيجة الظروف التى تعيش فيها . رجل فى الطريق يحمل مصباحاً ويفتش عن شلن وقع منه فى مطب أثناء سيره فى الشارع . . . زوجتى تحمل مصباح العكننة وترفعه فى وجهى كلما أحست أننى سعيد . . . رئيسى المباشر فى العمل يحمل مصباحاً وينتظر أى خطأ أقع فيه ليطفىء المصباح ويذبحنى . . . وأنا أحمل مصباحاً وأفتش عن ابتسامة حقيقية تضىء فى وجهى وأحياناً يحس الإنسان أنه مريض لأن أحداً لا يبتسم فى وجهه . . .

الأحد : ١٣ مارس سنة ١٩٦٦

ما هو الحب ؟ .

ليس الحب أن ينظر اثنان لبعضهما ، إنما الحب أن ينظر الإثنان فى اتجاه واحد . . . إننى أنظر دائماً فى وجه زوجتى ، وزوجتى تنظر دائماً فى وجهى ولكننا للأسف لا ننظر معا فى اتجاه واحد . . . ولكى أكون صادقاً ودقيقاً فسوف أستثنى فترة الخطبة من هذا الحكم ، والفترة التى تلتها مباشرة . . . بعدها لم نعد ننظر فى اتجاه واحد . والمفروض أن لكل رجل فى هذه الدنيا طباعاً خاصة وعادات مميزة . هناك رجل يحب البطاطس ورجل يكره البطاطس . . . رجل يهوى جمع طوابع البريد وآخر يهوى التنس ، رجل يحب الأناقة وآخر يهوى إصلاح الكهرباء إذا انطفأ النور . . . هناك رجل يجن إذا لم يجد الشبشب فى موضعه الذى تركه فيه ، وهناك رجل يحب نوم الظهيرة ، وهناك رجل يكره أهل زوجته . . . كل رجل له هواية معينة وطبيعة خاصة . . . وأنا رجل ليس لى ممار خاص

وأحب أهل زوجتى . . . وكل ما أريده أن تترك لى حريتى الخاصة فى اقتناء قط أو قطين على أكثر تقدير . . . هل هذه جريمة . أنا أحب القطط وأتفاءل حين أراها فى الصباح وهى تسعى نحو البقع المغطاة بالشمس وتمشط شعرها بلسانها وتستحم فى الدفء ... وأجد سروراً عظيماً حين أكون جالساً وحدى ويجىء القط ليجلس فى حجرى ويروح يقرأ أررررررررر. . . وقد لاحظت أن فى شخصيتى شيئاً يجذب القطط كما تأكدت أن القطط تنظر دائماً فى الاتجاه الذى أنظر إليه . وعند ما أغيب خارج البيت وأعود ينتظرنى القط على الباب ويتمسح فى قدمى بنفس اللهفة ونفس الحنين ونفس الحب سواء كنت عائداً فى التاسعة مساء أو فى الرابعة صباحاً . . . لا أجد بوزه ملوياً لأننى تأخرت، ولا يسألنى أين كنت ، ولا يحرجنى بشىء . . .

وعند ما أكون عائداً من جريمة حب رومانسى على الشاطئ يتشمم القط ملابسى وأنا أخلعها ثم ينظر إلى ويقول اضطراب أنفه أنه عثر على عطر ليس هو عطر زوجتى ، ساعتها أبتسم فى وجهه وأقول له اسمها فى خفوت وأحتضنه إلى صدرى ثم ألقيه إلى الأرض . . .

هذه هوايتى الوحيدة ، وليست لى هواية غيرها . . . أنا مثلا أدخن باعتدال ، لا أشرب شيئاً ويكفى كوب واحد من البيرة ليضحكنى على طوب الأرض ليلة كاملة . . . هل هى جريمة أن أحب القطط . . . نهايته . . . حين جئت بالقط الرمادى الغامق من السلم وبدأت حياته معنا لاحظ القط أننى شبه وحيد فى البيت برغم أننى زوج وأب ، لاحظ أن زوجتى ترمينا معا بنظرات عدائية صاعقة . . .

سألنى القط : مين ماو :

قلت : دى مراتى يا سيدى . . . ما يهمكش نظراتها . . . دى ما تقصدكش أنت . . . دى قصدها أنا .

قال القط : عاو ناو .

قلت : مش متكبره ولا حاجه . . . أصلها بتبص لك على إنك حيوان وإنها إنسان ، وعلى كده تبقى هى أحسن منك ، طبعاً فكرة غلط : لا هى لها فضل فى أنها اتخلقت إنسان ولا أنت ارتكبت جريمة عشان تطلع حيوان ، الحكاية كلها مترتبة من غير رأينا ، وفيه حكمة لا أنت تعرفها ولا أنا أعرفها ولا هى تعرفها .

قال القط : هاوناو .

قلت : دى حكاية قديمة جداً . . . بقى لها زى عشر سنين . . . كنت شاب صغير وطايش ووحيد وافتكرت إنى باحبها . وكنت أيامها بأحلم إنى أغير شكل الأرض واتقابلنا مرة وكانت الدنيا حر ولا فيش سينمات صيفى ما شفتهاش . . . قلت نتجوز . . .

قال القط : واو . . . نين . . .

قلت : وبعدين اتجوزنا . . . زى ما انت راسى مش باقدر أنقل كرسى من مطرحه أو أغير شكل أوضه . . . وأنا كنت فاكر إنى حغير شكل الدنيا . . . نهايته . . . حتى القطط مش قادرين نربيها زى ما انت شايف .

قال القط : مياو هاو عاو ناو .

قلت : ما تخافش . . . مش حتقدر تطلعك ولا حاجه . . . انت هنا فى حمايتى . . . فاهم يعنى إيه فى حمايتى . . . أنا الراجل هنا . . . أيوه . . . بس انت طبعاً تعرف اللى لك واللى عليك . . . ماليكش دعوه بيها خالص ، لا تخش أودتها ولا تلعب معاها ، شرابات الستات بتتقطع من ضوافركم . . . اعتبرها مش موجوده باختصار ، واتصرف على الأساس ده . . . بالنسبة للأولاد مالكش دعوه بيهم لأنهم طالعين لأمهم يكرهوا القطط . . . ما عدا محمد طبعاً . . . هو الوحيد اللى بيحب القطط . طبعاً مافيش كابينيه يتعمل غير فى الصندوق بتاعك وعندك أودتى اعتبرها ملكك ومتخرجش منها إلا لما آجى . . .

قال القط : ناو .

قلت : عظيم جداً اتفقنا .

ومضت حياة القط فى البيت بهدوء ، ورحت أرقب نموه بالزهو وألاحظ تصرفاته بالدهشة . كان القط يتحاشى الاحتكاك بزوجتى ويترك الغرفة التى تدخلها هى . ولم يكن يقترب من غرفتها ولا كان يمزق لها الشرابات ، وكان يحافظ باختصار على اتفاقنا حين حضر للبيت ، ولم يكن يكلفنى شيئاً سوى بضعة قروش هى ثمن غذائه الذى يتكون من الفشه والكرشه ، وكان يفطر الفول معى ويتعشى بالجبن أيضاً مثلى .

ولم يكن يشكو . كان يؤنس وحدتى . وكم من ليال عزيزة قضيتها وأنا أقرأ وهو جالس يقرأ أشياء أعرف أنها صلاته الخاصة التى لا أفهمها وإن كنت أعرف أنها موجهة لخالق الوجود وخالقنا سبحانه وتعالى . . .

— أررررررررر .

وذات يوم عدت من عملى بعد الظهر فوجدت زوجتى مهتاجة وثائرة ، كما وجدت القط محاصراً وقد أغلقوا عليه الحمام ، وراحوا فى البيت يتشاورون جميعاً . . . من يدخل إلى الحمام ويمسكه ليرميه خارج البيت . . . كما لو كان أسداً كاسراً تسلل إلى البيت . . . ودهشت . . . وفتحت الحمام فاندفع القط لأحضانى وهو يرتعش ، وقالت عيناه إنه لولا حضورى لقضى عليه ونجحت المؤامرة . . .

قلت لزوجتى : ماذا حدث ؟

قالت : لا يبقى القط لحظة واحدة فى البيت . . .

قلت بلطف : لماذا ؟ .

قالت بعنف : أنا أو القط .

قلت : تساوين رأسك برأس القط . . . ؟

قالت : هكذا قلت . . .

قلت : عظيم . . . سأخرجه إذا جاء أحمد فى الليل . . .

قالت : يخرج الآن . . .

قلت محاولا أن أكسب بعض الوقت لأفكر : أخرجه الآن كما تشائين . . . قولى فقط ماذا فعل ؟

قالت : أكل ورك فرخه .

قلت : فتح الحلة ومد يده وأكلها .

قالت : كانت على السفرة (ثم زامت) الحرامى . . .

قلت : يا زوجتى العزيزة . . . هذا قط لا يفهم أنه سرق . . . الإنسان وحده هو الذى يفهم . . . لقد وجد ورك الفرخه على المائدة فتصور أنها لمن يريد أن يأكل . . . كان جائعاً فأكل . . . هذه غلطتى فقد نسيت غذاءه اليوم .

قالت : أخرجه الآن .

قلت : حاضر . . .

وقرصت القط قرصة هائلة فى فخذه ورفعت يدى ممثلا أننى سأضربه لجريمته ، فقفز القط من حجرى واختفى فى الصالة . . . وصرخت على الخادمة وزوجتى أن يتعاونا معى لإمساكه ورحت أزعق وأنظر تحت البوفيه والدلسوار والكنبه والكراسى ، فتأكد القط أننى انضممت إلى المؤامرة عليه . واستعار من الضوء سرعته . وكلما ألقى أحدنا بنفسه عليه اندفع فى اتجاه مضاد . . . حتى اختبأ تحت الثلاجة . . . وكان هذا بالضبط ما أريده . . . إخافة القط وإزعاجه كى يختبئ تحت الثلاجة فلا يمسكه أحد . . . ونجحت الخطة . ولم تكد زوجتى تهجم على الثلاجة حتى صرخت : إوعى الكهربا بلاش حد يمد إيده دلوقتى فى الموتور ليتكهرب . . . إبعدى ليعضك . . . هوه حيروح فين يعنى . . . دلوقتى سيبوه يطمئن ومسيره يخرج من تحت الثلاجة . . .

ولم يظهر القط ليلتها إلا بعد أن نامت زوجتى فأطل برأسه من باب حجرة المكتب وقال بخفوت : ناو .

قلت : تعال يا بسبس . . . انت صدقت بصحيح . وأسرع يجرى ليرتمى فى أحضانى . . . وحين رفعت رأسه الصغير ونظرت فى عينيه ارتطمت عيناه بالضوء فصغرت الحدقتان السوداوان وظهرت صورتى فى زجاج العدسة الملىء بالود والتفاهم . . .

الأحد : ٢٧ مارس سنة ١٩٦٦

تناقشت بعد ذلك مع القط فى حادث السرقة . . . حاولت أن أفهم دوافعه لهذا التصرف الذى وضعنا معاً فى مأزق . . . لقد وجدت زوجتى السبب القوى الذى تطالب فيه بجلاء القط ، وتصور الموضوع كما لو كان احتلالاً مروعاً ينبغى شن الجهاد المقدس عليه وليس قطاً تاقت نفسه لقطعة صغيرة من الدجاج . . .

قلت للقط بلغتنا التى نتفاهم بها معا : وضعتنا فى مأزق .

قال بدهشة : لماذا ؟ .

قلت : تريد أن تطردك الآن لأنك لص .

قال : أنا لص . . .

قلت : أمس . . . ورك الدجاجة أمس .

قال : أمس . . . ماذا حدث أمس . . . ؟

قلت : هل أنت حقاً لا تذكر ما حدث أمس . . . ؟

قال : بوجه عام لا أذكر غير اللحظة الحاضرة ومجموعة من الخبرات والغرائز . . . إن رأسى بتعبيركم الإنسانى مغموس فى الظلام . . . لا معنى للأمس عندى ولا دلالة للغد . . . لا أستعيد ذكريات الأمس ولا أحلم

قلت للقط : لو وضعت على المائدة وركاً لدجاجة سمينة . . . هل تأكله ؟

قال : طبعاً . . .

قلت : لا تفعل ذلك مرة أخرى لو سمحت .

قال : لماذا

قلت : زوجتى تعتبر أن هذه سرقة . . . وهى تريد سبباً لطردك من البيت وحرمانى من ولائك الشديد . . . يجب ألا نعطيها نحن هذا السبب . . .

قال : معك حق ! .

قلت : هذا هو الذى يعجبنى فيك . . . هل تعرف أن القطط تشبه النساء ؟

قال : لا داعى للإهانة . . . تعرف أننى قط ولست قطة .

قلت : لست أقصد إهانتك . . . أريد أن أقول إنه لو استطاعت الزوجة المصرية أن تتصرف كالقطط لما صار هناك زوج تعيس .

قال : زدنى إيضاحاً من فضلك . . .

قلت : هذا الولاء الشديد هو ما يريده الرجل . . . إن الرجل الشرقى يقدم الطعام والنقود ، ولا يريد بعد ذلك سوى الولاء الخالص . . . لا يريد من زوجته أن تتحول إلى عداد يذكر له عدد مرات غيابه ، أو منبه يدق كلما تأخر فى المجئ للبيت ، أو إصلاحية تأخذ على عاتقها تغييره وتهذيبه وتأديبه وإصلاحه . . . إنه يريد أن يتركها الساعات الطويلة ثم يعود ليجدها تتمسح فى قدميه . . . هذا ما ينشرح له صدر الزوج الحقيقى .

قال : لماذا لا تحاول الزوجه أن تشرح صدر زوجها الحقيقى إذن .

قلت : قصة طويلة لن تفهمها بصفتك قطاً . . .

قال : لا بأس . . .

قلت : إننى أحترم القطط وأحبها كثيراً . . .

قال : الشعور متبادل . . . إن الحب الحقيقى لا بد أن يخلق حوله مجالاً لا وجود فيه لغير الحب ... حاول أن تحب إنساناً بصدق . . .

ستكتشف أنه يحبك .

قلت : كل القطط التى ربيتها قبل ذلك كانت إذا جاء الليل تقرأ شيئاً . . .

قال : نعم . . .

قلت : أعلم أن هذه القراءة صلاة أو تسبيح خاص .

قال : نعم . . .

قلت : أريد أن أعرف هذه الصلاة .

قال : لو كان المفروض أن تعرف صلاتنا لخلقك الله قطاً . . . لن تعرف ! .

قلت : هذا هو الجواب الذى تلقيته من كل القطط قبلك . . . كنا نتحدث كثيراً لكن أحداً منها لم يقل لى ماذا يقرأ ؛ ستقول لى أنت . . . رأيت ما فعلته من أجلك . . .

قال : أقدر تضحياتك لكننى أعتذر .

قلت : لماذا تعتذر .

قال : أسألك سؤالا .

قلت : تفضل .

قال : لماذا تعتقد أن لنا عيوناً تغلق فى الضوء وتفتح إذا جاءت الظلمة ؟

قلت : سؤال لم يخطر ببالى قط .

قال : وأجيبك عليه .

قلت : تفضل .

قال : نحن نرى فى الليل ما لا تراه عيونكم التى لا تفتح ولا تغلق .

قلت : ماذا ترون فى الليل ؟

قال : كل الأشباح والأرواح التى منعت عنكم رؤيتها . . . ونحن نقرأ صلاتنا ساعتها . . . وهى صلاة ليس الغرض منها طرد هذه الأشباح والأرواح . . . أبداً ، مهمة الصلاة هى دائماً مهمة الصلاة . . . ولو اتصل

المخلوق بمصدر النور الخالق فلن يعود هناك خوف .

قلت : أريد أن أعرف هذه الصلاة .

قال : يستحيل .

قلت : أحضر لك دجاجة كامله . . . نصف كيلو من الكباب الفاخر . . . سمك . . . أحضر لك سمكاً مشوياً وعظيماً وأنظفه لك من الشوك وتأكله وحدك . . . فقط قل لى هذه الصلاة .

قال : العرض شديد الإغراء .

قلت : كيلو وربع من السمك .

قال : انت تعذبنى بهذا الإغراء .

قلت : أنت الذى تعذبنى بالصمت . . . لم لا تقول هذه الصلاة ؟

قال : هذه الصلاة أحد أسرار القطط .

قلت : زوجتى تريد طردك .

قال : إنك ستحمينى .

قلت : لا تخف .

قال : إنك تكسب ثواباً بحمايتى منها .

قلت : إن إصرارها على كراهيتك هو السر فى إصرارى على حبك .

قال : من يسقى شجرة عطشى يغفر الله من ذنوبه .

قلت : اعلم ذلك ... هل تعرف أن واحداً من صحابة نبينا كان يحمل قطاً حتى سموه « أبا هريرة » . . . ؟

قال : غريب . . . لم أسمع بذلك قط . . . لو كان لنا تاريخ . . . مأساة القطط أن ليس لها تاريخ .

قلت : لم تقل لى ما تلك الصلاة .

قال : تأكد أنى لو أستطيع أن أخبرك لقلت . . .

قلت : ولو نصف الصلاة .

قال : ثمة رائحة عدو يقترب . . . هذه زوجتك . . .

سأهرب . . .

قلت : داخل قاع الثلاجه . . . بين الموتور والجدار . . .

* * *

تعتقد زوجتى أن حبي للقطط والكلاب وحيوانات حديقة الحيوان ، هو نوع من أنواع الجنون . وهو جنون مؤذ، لأننا كنا نستطيع بدلا من تربية القطط والكلاب أن نربى الأرانب والدجاج، وهكذا تسفر زوجتى عن مفهومها فى الحب والتربية ، إنها تربى الأشياء من وجهة نظر أنانية بحت . . . كي تأكلها فى النهاية .

قالت زوجتى وهى ترمق القط القابع فى حجرى بحقد :

— انت ليه ما طلعتش دكتور بيطرى .

شممت فى الكلمة رائحة سخرية خفيفة . ولا أنكر أننى أملك حاسة شم قوية تشبه حاسة الشم عند أصدقائى رفاق الغابات المفترسة ، رددت وراء زوجتى بصوت بطيء — صحيح . . . أنا ليه ما طلعتش دكتور بيطرى . . .

قالت (موضحة سؤالها السابق) — على الأقل كان يبقى حبك فى الحيوانات له قيمة .

قلت (متسائلا) فعلا ... أنا ليه حبى فى الحيوانات مالوش قيمة.

وأحسست — ربما عن غير عمد — إننى قد أفلت فرصتى فى أن أكون شيئاً مذكورا . إن النجاح الذى حققته فى عملى كموظف كان يمكن أن يحققه أى فرد متوسط التيلة ، ضاعت الفرصة إذن حين لم أدخل كلية الطب البيطرى وأمارس عملا هو الهواية.وأقوم بواجب هو الحب .

قلت لزوجتى : أنا لو كنت طلعت دكتور بيطرى ما كنتش بقيت دكتور عادي ، قطعاً كنت بقيت مكتشف أو مخترع أو كنت عملت خدمة للحيوانات ما حدش عملها . . . ويمكن كنت ضحيت بحياتى فى تجربة من التجارب .

قالت زوجتى – بصوت مثلج – العبقرى عبقرى فى أى حاجة .

قلت – صح .

وتذكرت المثل العامى الذى يقول : «حد يقدر يقول للغولة انتى عينك حمرا» .

وانتهى حوارنا عند هذا الحد . . .

الأحد : ١٠ أبريل سنة ١٩٦٦

أنا زوج مثقف يتحدث أكثر من لغة . . .

إذا هدانى الله فتذكرت الآخرة وصليت فإننى أتحدث باللغة العربية ، وإذا نزلت إلى الشارع فإننى أتحدث باللغة العامية . وفى الشغل عندما أخاطب رئيسى المباشر لا تزيد مفردات اللغة على هذه الكلمات «حاضر – نعم – تحت أمرك – تمام – اللى تشوفه – صح يا افندم – تمام يا افندم – هايل يا افندم – تحيا آراؤك – وتسقط آرائى» . . . وعند ما ألتقى مع محمود أو يوسف «اثنين من أصدقاء السوء» ، تتحرر اللغة ونستخدم مفردات كنا نستخدمها أيام الجنون أو الشباب . وقد ذبحا معا (أعنى الجنون والشباب) مثلما ذبح خروف العيد فى العيد . وعند ما أحب تفقد لغتى كثافتها وتبدأ رحلتها مثل . « لونا ١٠ » حول القمر بحثاً عن مكان تهبط فيه مقسمة بكل الكذب أن هذا هو الحب الأخير . وفى البيت أتحدث مع زوجتى باللغة الصربوكرواتية وهى لغة سكان البلاد اليوغسلافية ، وتتحدث زوجتى باللغة السنسكريتية وهى لغة هندية قديمة ، وهكذا ترون أن طريق المواصلات بيننا مقطوع ، والحرارة نائمة فى الأسلاك والدنيا لا تمطر ليهمد هذا التراب ، والوحدة ملعونة ، وقد ضاق الضيق بالضيق مثلما قال نجيبنا محفوظ .

ورغم ثقافتى الواسعة التى تتمثل فى اجادتى لهذه اللغات لا أنجح فى التفاهم مع زوجتى .

وأنا أعرف بتجاربى العظيمة أن الفرق بينى وبين زوجتى هو الفرق بين الرجل والمرأة . والمرأة مخلوق غريب لديه قدرة فائقة على تبسيط الأشياء وعدم رؤية ما وراء الرموز .

انت تقول للمرأة : أنا أحبك .

فتقول لك : تزوجنى . . .

إنها تبسط علاقة الحب المعقدة المتشابكة الفنية إلى شيء حاد مجوف وبارد ومعروفة مقدماته ونتائجه . . . وهو الزواج . أنت تقول للمرأة : أنا مسافر لاكتشاف قارة جديدة . . .

فتقول لك : حتسيبنى لوحدى ؟

انتهى الأمر وليذهب اكتشاف القارة للجحيم ، المهم أنها لا ترغب فى أن تترك وحيدة . . .

انت تقول للمرأة : أنا متعب ومنهك ومكدود .

فتقول لك : طبعاً ، بقالك شهر مفسحتنيش .

وهكذا سيداتى وسادتى وهكذا . . . المرأة هى المركز ، وعلى الكواكب الأخرى أن تدور حولها وتدور حتى تسقط ميتة من التعب . . . هذه هى المرأة ، أما الرجل — عافاه الله ومتعه بنعمة الحرية قبل الزواج ونعمة التمرد بعد الزواج — فيملك ذهناً متسائلا شديد الإلحاح مثل فتى فى المقابر . . . تقول المرأة للرجل : جاء العيد فيشرع ذهنه فى التساؤل :

جاء العيد . . . ما معنى العيد . . . هذه هى المسألة كما سبق أن أدلى السيد هملت بهذا التصريح فى مسرحيته . . . دعونا نتساءل ونمضى فى تساؤلنا حتى ينتهى العيد، هل العيد حقاً هو سباق الأسرة المصرية نحو أطباق اللحم وصوانى الرقاق وأنواع الفتة وأصناف المسلوق والمشمر وغرائب المهموك والمحمر . . .

إذا كان ذلك كذلك وفضنا ذلك كذلك . . .

هل العيد هو خروف العيد . . . هو اللحم . . . هو السيمفونية التى

تبدأ بقرع نحاسي شديد يقول : «هم يا جمل» ثم بعد الحركة الرابعة تهمد الأصوات ولا يبقى غير هذه النداءات الخافتة التي تسرع وتبطيء وتصدر من البيت المصرى حيث يقول كل واحد من الآكلين لزميله وقد انسطح على بطن ظهره :

— والنبي تشوف لى قزازة كوكا كولا لحسن روحى حتطلع ! .

هل هذا هو العيد . . . أختلف مع زوجتى حول هذه النقطة مثلما أختلف معها حول شم النسيم . وغداً شم النسيم، ولست أدرى أين هو النسيم الذى سوف نخرج فى جماعات محملة بالفسيخ لنشمه .

أين هو النسيم . . . أريد جواباً مباشراً وصريحاً وقاطعاً ولا علاقة له برائحة الفسيخ .

يا للرعب ... إننى أحب الأسماك لكننى أحس تجاه الفسيخ بالدوار الذى يسبق الإغماء . . . هذا الشكل . . . والمضمون . . . ليس هذا وحده سبب المشكلة ، ثمة سبب آخر ، فقد أثبتت تحرياتى التاريخية أن شم النسيم ينتمى لقدماء المصريين ، وأعتقد أننا ندلل قدماء المصريين أكثر مما يجب ، ويكفى كل تعبنا فى إنقاذ معابدهم من الغرق، أما أن نحتفل معهم بعيد من أعيادهم الشاذة التى كانوا يفرغون فيه من تحنيط الأجساد ليأكلوا السمك المحنط . . . فهذا فوق قدرة الطاقة البشرية . . . لن أحتفل بشم النسيم . . . سوف أفكر فى قصيدة أقولها لزوجتى مثل قصيدة الشعر التى قدمتها بدلا من الخروف .

قالت زوجتى : العيد هل . . .

قلت — منشداً قصيدة صديق العمل والمقهى عبد السلام شهاب :

بباب الخلق قد طال الوقوف	ولا جدى هناك ولا خروف
وقلت لزوجتى هذا فثارت	كبركان يقال له : فزوف
ومن فمها تشبلق بى لسان	كما تهوىَ على الباغى السيوف
وقالت لن يكون العيد عيدا	فقلت لها : كذا قضت الظروف

وليس فى مرتبه قروش كمثل فى مرتبه ألوف
فخلى عنك لومى واعذرينى فما فى الفقر عيب أو كسوف
ولو أنى استطعت شراء ديك لقاسمت الخلود أباك خوفو
فيا عيد الضحية . هل أضحى بنفسى فيك ... أم ماذا تشوف؟

الأحد : ١٧ أبريل سنة ١٩٦٦

الزواج هزيمة مزدوجة لأنه يعنى أن امرأة قد انتزعت رجلا من وسط أصدقائه فى المقهى وأدخلته بيتا وقررت أن تبدأ فى استغلاله حتى يسقط ميتاً من التعب . والهزيمة الثانية أن هذا الرجل عند ما يدخل بيت الزوجية يتصور أنه سيلعب لعبته الجديدة فى الزواج بنفس أصول اللعبة القديمة فى الحب .

يتصور أنه سيلعب بالصراحة والتعاطف والمودة والحنان ، ثم يكتشف الرجل أنه كان مخدوعاً . . . إن الصراحة تجىء فى أمور المادة ، أما التعاطف والحنان والمودة فتستطيع أن تستبدل بها كلمة واحدة . . . التضحية . . . ادفع وانت تبتسم . . . اغمض عينيك وأنت تدور فى الساقية . . . امضغ طعام زوجتك وابتلعه بغير أن تتنفس . . . لو تنفست اكتشفت أن زوجتك مثل رسام فاشل لا يرسم غير وجه واحد. لا تتنفس وأنت تأكل . . . افرد كرشك للأمام . . . تنفس بهدوء وعمق وبلادة ... ابتسم برضاء وتبلد وأنت تقترض من أصدقائك العزاب . قل لهم إنهم حيوانات منقرضة لأنهم ليسوا أزواجاً محنطين . إحمد الله لأنك محنط ومستقر . . . أنت مستقر . . . لم تعد تسأل نفسك سؤالا بغير جواب . لم تعد تنتظر فى السماء وتتأمل جمال القدرة الخالقة . . . لم تعد تقلق لأن رجلا يساق إلى الجدار ويضرب بالنار لأنه يؤمن بشىء ... لم تعد قصص الحب الفاشلة تحزنك . . . لم تعد تتساءل متى يصل الإنسان إلى القمر

إلا لتعرف متى تستطيع أن تخلى الأرض لزوجتك . أنت بورجوازى مستقر تكمن قيمتك فى جيبك ، فابتسم وأنت تدفع وادفع وأنت تبتسم لا تنس أن تقول لزوجتك إنها لا تزال جميلة رغم أن نظرتك إلى الجمال قد تغيرت تغيرات بيولوجية وسيكولوجية وجذرية .

انتهى الأمر بالنسبة لك ولم تعد تتساءل كيف جرؤ الشيطان على رفض السجود لآدم . . . لن تعرف أبداً أن الله يعطى حرية الاختيار وحرية الرفض لكل مخلوقاته . . . إن الحرية شرط أساسى للعدل . . .

لقد صرت زوجاً تعيساً مثلى ، وفيلسوفاً مثلى ومحنطاً فى حياتك مثلى . وسوف تفكر يوماً فى نفسك بهذا الجلال الذى تفكر به مومياء فرعونية فى نفسها وهى راقدة فى المتحف ... فهل تساوى الفلسفة كل هذه التعاسة. وهل يساوى الاستمرار هذه التضحية . وهل يساوى الزواج أن يذهب الحب إلى الجحيم . . .

الأحد ٤ سبتمبر سنة ١٩٦٦

ليست حياة الإنسان غير سلسلة من الهبوط المستمر نحو شىء ، وأهم حادثتين فى تاريخ الإنسان، يتعلقان بهبوطه من بطن أمه ساعة الميلاد وهبوطه إلى بطن الأرض ساعة الوفاة ، وبين هذا وذاك عمليات تتصور أنها صعود لأنها وصلت إلى القمة ، غير أنها فى حقيقتها هبوط لأنها ستستدير عائدة إلى السفح . . . ولقد زادت على عصرنا السعيد فرص جديدة للهبوط ، كالهبوط من الفراش إلى الشارع ، ومن محطة الأوتوبيس إلى جوفه، والهبوط من درجة أقل إلى درجة أعلى مع زيادة المرتب ثلاثة قروش ونصف، ويجىء هبوط المرتب نفسه فى أيدى الدائنين فى مؤخرة الشهر. والمصريون قوم يحبون الحكمة ، والفلسفة هى الحكمة ، هم إذن فلاسفة من قديم الزمن ، وهذا سر تفضيلهم للهبوط هذه الأيام .

ومن أنباء الهبوط هذا الأسبوع أننى هبطت فى عملى بعد صعود استمر

ستة أسابيع وخمس عشرة ساعة .

ما أتفه الإنسان حين يتصور نفسه مهماً ويحسب زمن صعوده وهبوطه.

وحين جاءنى الخبر فى البداية اسودت الشمس مثل فحمة لم تحترق وجثم على القلب هذا الحزن الهادئ الذى لا يدريه أو يفهمه سوى الله ، فهو وحده خالق القلب وهو وحده الذى يعلم كم تتسع مساحة فى قبضة اليد لأحزان فى رحابة الأفق .

وحين عدت من عملى كنت أسمع صوت ساعتى تتك رغم ضجة الشارع . أنت موظف وزو ج. مرؤوس هنا ومرؤوس هناك . . . مستيقظ ونائم . . . تعمل ولا تعمل ... هناك أمل فى أن تصبح شيئاً وليس هناك أمل . . . الشمس لم تزل فحمة سوداء لم تحترق وعلى الصدر جليد بارد فى وزن جبال الألب والكآبة تنتعش وتبيض بيضها الصغير وترقد عليه وعما قليل تخرج الكتاكيت من بيضها لترمق السماء والأرض بالدهشة وتحس بالدوار .

وبمناسبة الكتاكيت يعتقد رؤسائى فى العمل أننى كتكوت صغير يطل من بيضته وقد أصابته الدهشة من زحمة المواصلات تحت الشجرة . هذه صورتى فى أذهانهم ، وهى صورة طيبة تدل على حسن رأيهم ، وهى صورة ينبغى بمقتضاها ألا يسلم مخلوق إلى سلطة تغيير شىء أو عمل شىء . . . إن أحداً لا يكلف الكتكوت بمسئولية. ورغم أننى بسبيل أن أن أتوفى بسبب الشيخوخة المبكرة إلا أنهم غير مقتنعين ، وعلى حين يعاملنى رؤسائى بهذا الرفق اللائق بكتكوت ، فلا يكلفوننى إلا بأبسط الأعمال وأخفها . تنظر إلى زوجتى بالعنف اللائق بأسد عجوز خائب يعيش وسط غابة تمتلىء بالغزلان ، ولا يصطاد شيئاً بقدر ما يزعق فى وجه زوجته ويزأر أمام أولاده . وإذا كنت أنتمى فى رأى رئيسى الكبير إلى دنيا الطيور فإننى عند زوجتى أكثر انتماء لدنيا الكواسر ، والحقيقة أننى حائر بين الرأيين ولا أدرى أيهما أصدق وأيهما أدع ، وربما أسلمتنى هذه الحيرة

إلى نوع من التأمل الهادئ الذى يسمونه طبياً بالميلانكوليا .

أحياناً أنتزع نفسي من الكآبة القاهرة وأحاول البحث عن أسباب ما حدث .

لست أدرى فى الحقيقة سبباً لحزنى غير المفهوم، إن ما حدث لى يحدث للكثيرين ولا يحمل دلاله ، فأنا موظف فى الحكومة ، واللوائح التى أخضع لها لا تريد أى تقدم . وضعت هذه اللوائح فى عصر الاستعمار التركى ، وطورها الاستعمار الفرنسى ، كما طورها الاستعمار الإنجليزى ، ولم نزل نحافظ عليها مثل شيء مقدس .

أحكى ما حدث لأستريح .

قيل لى : أرنا كيف تنشئ قسماً جديداً ففعلت ، واشتعلت أعظم الأحلام فى رأسي وبدأت أعمل . . . ثم قيل لى توقف وعد إلى قسمك القديم ففعلت ، وكانت رحلة الذهاب قصيرة وممتعة وتمتلىء بالأفكار الجديدة وكانت العودة طويلة وآسنة . . . والآمال العريضة التى راودتنى لم يقدر لها قط أن تفرح بشبابها ، وإحساسى بأننى لا أحقق شيئاً فى حياتى ولا أحقق ذاتى مثل آلاف الموظفين كان عسيراً على الفهم وقاسياً بالدرجة القصوى . وهكذا وقع كل شيء على رأسي بشكل مضحك . . . تهشمت أحلامى مثل دستة من أكواب الزجاج الرخيص ، ولأننا لم نزل أطفالا فنحن نتصور أن الدبوس الذى يجرحنا يجرح السماء فى نفس الوقت. لكن الناس ترفض أن تدع أحداً ينسى فى مثل هذا الموقف .

تصاعدت التكهنات والتوقعات وارتفع الهمس والحديث . . واصطدمت التعليقات والتساؤلات فى المصلحة ، وجاءنى الأصدقاء والأعداء يعلنون أسفهم ويدارون شماتتهم ويتبسمون مداراة أو أسفاً وسألنى أحدهم دهشاً – كيف يحدث ذلك ؟ . . . ما هى الحكمة . . . وقفزت إلى ذهنى على الفور صورة نابليون وهو عائد من موسكو فى رحلة الشتاء وأحد جنوده الحمقى يسأله عن الحكمة .

وهكذا عدت إلى رئيسى القديم . . .وكانت نظراته الطويلة الفزعه تشى بقلقه الذى حاول عبثاً أن يكتمه . ولعله يعتبر — مثل زوجتى ، إننى بعض ما رماه به القدر من مصائب . وابتسم فى وجهى فابتسمت ورحنا نتبادل الابتسامات الشاحبة مثل ناس جمعهم مأتم .

ولاحظت زوجتى أننى مكتئب وصامت على غير العادة ، لاحظت أن رغبتها فى الشجار عند ما تنمو لا تصطدم برغبة مماثلة ، سألتنى هل أحس بالمرض . . . لا . . . هل هناك أخبار سيئة . . أبداً . . . لم يبق أمامها غير تفسير واحد لانطوائى وهمودى، هذه أعراض فشل جديد فى قصة حب . . . وربما كانت إحساساً بالذنب بعد قصة حب ناجحة . . . هناك قصة حب إذن . . . هناك خيانة ... وهكذا يبدأ تعذيبى واضطهادى على جريمة لم أرتكبها بعد ، وإن كانت تبدو كحل أمثل لما أعانيه من إحساس بالضآلة . . . لكن الحب يبدو مستحيلا هو الآخر . . . أين موضوعه . . . إن الناس الذين أتعرف عليهم أو الذين تعرفت بهم منذ عشر سنوات لم يزيدوا شخصاً واحداً .

الحياة نفسها نضبت فما أطيب الأرض فى مصر ، كثيراً ما تصيبنى الدهشة لظهور البرتقال أو البطيخ . . . هذا معناه أن الأرض لم تزل تعطى ثمارها للناس.هذا معناه أنها شديدة الطيبة والرحمة وعظيمة الحنان . . . كان العدل أن تمتنع عن العطاء ، لكنها رحمه الله هى التى تحكم الأرض . أصدقائى كما هم لم يتغير فيهم أحد ، ودورتى كما هى . . . من البيت إلى العمل إلى المقهى إلى البيت دورة تتكرر كل يوم فمن أين آتى بموضوع الحب إذن .

وقلت للحاج الطيب صاحب المقهى وأنا أنهد على الكرسى فيه : مش جبنا ورا يا حاج . . . قال : إزاى . . . قلت محاولا تقريب المعنى إلى ذهنه : القهوة الجديدة اتقفلت ورجعنا ، رجعنا لمطرح ما كنا للقهوة الأصلانية .

قال وهو ينحنى على الكرسى حتى لا يسمعه رواد المقهى : لا قدر الله حصل نقص فى الماهية ؟ . . . أبداً . . . حصل رفد والا حاجة . . . أبداً . . . يبقى حصل خير . . . ثم بصوت عال : هات فنجان قهوة ولمع الطاولة .

ومن الغريب أننى قررت أن أمتحن تفكير زوجتى لأرى كيف يجىء رد فعلها على الخبر . قلت لها ونحن نأكل . . . إننى عدت مرؤوساً كما كنت . . . قالت وهى تزدرد لقمة عظيمة — فيه نقص فى الماهية . . . لأ . . . اترفدت . . . لأ . . . يبقى (ثم ازدردت ملعقة من الأرز) وقالت : حصل خير .

نفس السؤالين الساذجين اللذين سألهما صاحب المقهى . . . وشربت القهوة وجىء بالطاولة وجلست أنتظر يوسف .

محبوسه والا عادة . . . محبوسة . . . العب . . . هارد لك . . . عرفت إيه آخر اخبارى . . . شوف يا سيدى . . . وتمع قليلاً وقال وهو ينفخ فى الزهر .

— ماجلان رجع مطرح ما قام . . . حتكون أحسن من ماجلان . . .

وضحك فضحكت . . . وشاهدنى صاحب المقهى أضحك بعد عبوس فضحك كنوع من المشاركة ، ورأى الصبى المعلم يضحك فضحك بنفاق ، وجامل الزبائن المعلم والصبى فضحكوا . . . وانتقلت عدوى الضحك من منضدة إلى منضدة .

وبعد ثوان كان المقهى كله يضج بالضحك . . . وكنت أنا . . . كان هذا . . . كان ذلك . . . كان الموضوع الذى أثار الضحك كله أنا . . .

لقد صرت أضحوكة . . . ولم يعد هناك أمل فى البيت أو العمل . . . ولما كانت الحياة هى البيت والعمل فلا أمل فى الحياة .

وعند هذا الحد قررت أن أتوقف عن كتابة المذكرات .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

الكتاب القادم

اقرأ

الإنسان الأوربي في الجد واللعب

عبد الستار الطويلة

